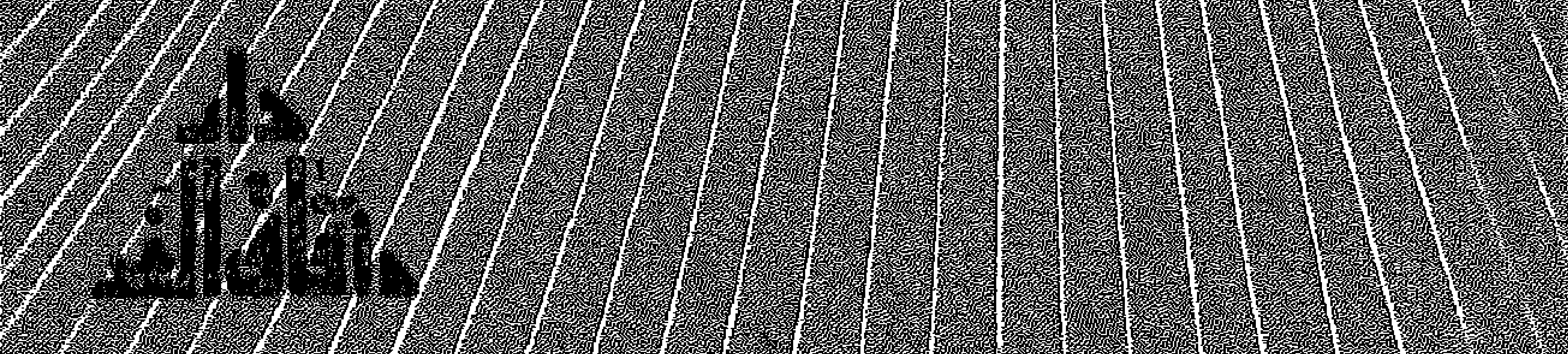
ابو الحسن الندوي

التفسير السياسي للإسلام

في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب



ابو الحسن الندوي

التفسير السياسي للإسلام

في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلي المودودي
والشهيد سيد قطب

دار
آفاق الغد

اهـــداء

اهدى هذا الكتاب الى من يرى أن رضا الله تعالى في الدنيا والآخرة ، والفوز بالجنـة ، والنجاة من النار ، وموافقة الكتاب والسنة ، هى الغاية ، وكل ماعداها — من جهود ومحاولات ، وجماعات وقيادات ، ونظم وحكومات — وسائل تخضع للغاية ، وتستخدم لصالح الاسلام ، فيحب المرء لا يحبه الا لله(١) ، وينتصر لحركة أو فكرة ، لا ينتصر لهما الا حبا للاسلام .

اهدى هذا الكتاب الى من يؤمن بان النعمة الوحيـدة التى ختمت بشخصية ، هى نعمة « النبوة » التى ختمت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، اما سـائر النعم فباقية سـائرة ، منها نعمة العلم ، ونعمة الفكر ، ونعمة التحقيق ، فلا يحتكرها انسان ، ولا تختم بانسان « وما كان عطاء ربك محظورا » .

اهدى هذا الكتاب الى من يكون على استعداد دائم للانتقال من نافع الى انفع ، ومن صالح الى اصلح : ولقبـول الحق اذا اتضح ، والدليل اذا قام « فان الحق قديم » كما يقـول عمـر بن الخطاب رضى الله عنـه فى منشـوره للقضـاء — فالرجوع اليه لا غضاضة فيه ولا بدعة .

---

(١) لفظ ورد فى حديث مرفوع متفق عليه

اهدى هذا الكتاب الى من يرى أن حق الملاحظة والنقد ، حق مشاع ، لا يحرمه ذو علم وصاحب فكر ، وان عملية النقـد وابداء الملاحظات ، لا يطبق عليها قانون « اتجاه واحد » .

اهدى هذا الكتاب الى من لايسرع بالحكـم على كتاب حتى يستوعبه فهما وقراءة ، ولا يستقبل بحثا باساءة الظن بنية صاحبه، والشك فى مراميه .

وصدق الله العظيم « فبشر عباد الذين يسـتمعون القول فيتبعون أحسـنه ، أولئك الذين هـداهم الله وأولئـك هم أولوا الألباب (١) .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

---

(١) الزمر ١٨ .

بســـم الله الرحمن الرحيم

المدخـل فى الموضـوع

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

أما بعد ، فان الاسلام دين الله الأخير ، الذى يتكفل بهداية البشرية الى يوم يرث الله الأرض ومن عليهـــا ، وعليه تتوقف نجدتها وخلاصها ، وصلاحها وفلاحها ، فلا بد ـــ اذن ـــ أن يبقى الى يوم القيامة ، يوجهها فى دينها ودنياها ، وينير لهـــا الطريق فيما يتصل بأولاها وآخرها ، ومن ثم جاءت عقائده وحقـــائقه مقررة لا تتغير ، وشرائعه وأحكامه وقوانينه مستوفاة لا تقبـــل

النسخ والتعديل ، ولم تكن شريعته وحدها منزلة من الله ، بل ان حضارته هي الأخرى تقوم على الحقائق الأبدية الخالدة . حقيقة لا تحتاج الى التقرير .

ولكن هناك حقيقة أخرى ، هي أن الحياة متحركة متطورة ، مستمرة النمو والتغير ، وذلك من محاسنها ، وليس من مساويها ، وليس ذلك شذوذا عن الفطرة ، وانما هو اقتضاء الفطرة ، فهي تنتقل من طور الى طور ، ومن لون الى لون ، لأنها دائمة الشباب والنشاط .

فكل شيء في الحياة يتغير ، تتغير اللغات واللهجات ، وتتغير أساليب البيان والتعبير ، ومناهج البحث والتفكير ، وتتغير الأسباب التي تثير القلق النفسي والاضطراب الداخلي ، وتتغير الوسائل التي تقاوم هذا القلق والاضطراب ، وتتغير أوضاع التساؤلات التي تثور في النفوس البشرية ، كما تتغير أوضاع الاجابات عليها .

وتنحصر مسئولية أبناء الاسلام البررة المخلصين ، وأنصاره وحماته من العلماء والمصلحين ، القائمين بعرضه والتعبير عنه ، في هذا الوضع المزيج — الذي تشكله أبدية الدين وخلوده ، وتطور الحياة ونموها المستمر — في أن يقوموا (كل في عصره)

بعملية عرض الاسلام ومحاسنه وتعليماته بأسلوب يقوى ايمان أبناء عصورهم — من جديد — بهذا الدين الخالد ، وحقائقه الثابتة ، وعقائده الأبدية ، ويعيد الى نفوسهم الثقة بفضلها وحاجة البشرية والمدنية اليها ، وهذا ما أشار اليه سيدنا على — كرم الله وجهه — حينما قال : « كلموا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله »(١) وهذا ما صنعه متكلمو الاسلام ، والعلماء الربانيون ، فى عصورهم المختلفة ، فقد قاموا بهذه المسئولية الدقيقة حسب الأوضاع والملابسات التى واجهتهم ، جزاهم الله عن الاسلام خير الجزاء .

لكن هذا العمل دقيق وصعب بقدر ما هو واجب وضرورى ، فيجب على الذين يحاولون أن يقوموا بعملية عرض الاسلام وتفهيمه وتقريبه الى القلوب والأذهان ، أن يلازموا الحيطة والدقة — على طول الطريق — فى تحقيق غاياتهم واكمال مهمتهم ، حتى لا يتكون ، على غفلة منهم أو عن غير ارادة وقصد لهم ، لدى الجيل الجديد — الذى يراد تعريفه بحقائق الاسلام وترسيخ عقائده فى قلبه أو يقصد استخدامه لاعلاء كلمة الله ، ورفع منار

---

(١) وساق البخارى فى صحيحه قول على رضى الله عنه فى هذا المعنى بما يلى : « حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ » ويروى مثل ذلك عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

الاسلام — « ذوق دينى » مختلف عن « الذوق الدينى » الذى كان يتسم به الجيل الاسلامى الأول ، بفضل تلقيه التربية فى أحضان النبوة مباشرة ، ذلك الذى توارثته الأجيال المتلاحقة بعـــده ، وحتى لاينحرف هذا الجيل فى مناهج تفكيره عن الجادة التى رسمتها النبوة على صاحبها الصلاة والسلام ، كما حدث مرات فى تاريخ الأديان القديمة والمذاهب والفرق الاسلامية الحديثة ، ان هـــذا الحدث لا يتكرر فى تاريخ الأديان والمذاهب ، ولكنه اذا حـــدث مرة ، لم يكن تداركه وتلافيه ممكنا بأى حيلة من الحيل ، والتاريخ يشهد بذلك . ان هـــذا « الذوق الدينى » انما ينبع من التـــأييد الالهى ، والتوفيق الربانى ، والقوة القدسية ، التى يكرم بها الأنبياء والرسل ، وهو أقوى قوة ، واعظم ثروة ، وامضى ســـلاح ، واغلى تراث ، لدى هذه الأمة ، انه سهل افساده ، ولكن لايمكن اصلاحه الا بالتعاليم النبوية الصحيحة ، والتربية الدينية العريقة ، وصحبة الربانيين الذين يمثلون السيرة النبوية الأصيلة ولا تملك حكومة مهما كانت قوية وعظيمة — أو منظمة سياسية مهمـــا كانت غنية وحكيمة — أن تتدارك هـــذا الانحراف عن « الذوق الاسلامى » الأصيل .

وظل هذا العمل الدقيق — عمل العرض الجديد للاسلام — يتم عبر التاريخ الاسلامى بطريقة حكيمة لم تحـــدث بين الجيـــل

المسلم المعاصر ، وبين العقائد والحقائق ، والقيم والمثل الاسلامية، تلك الفجوة العميقة الواسعة التي وقعت — في تاريخ اليهودية والمسيحية — بين الشباب المثقف الذكي ، وتعاليم العهد العتيق ، والعهد الجديد، مما آثار الشكوك والشبهات الكثيفة في قلبه تجاه تعاليم « الكتاب المقدس » وأدى به الى الثورة عليها ، وضربهـا عرض الحائط ، وخيم الالحاد واللادينية على العـالمين اليهودي والمسيحي ، وبالتالي مني العـالم البشري كله بأن يجني ثمـاره المرة ، ولا يزال .

لكن القائمين بعرض الاسلام وتقديمه في الأسلوب العصري استطاعوا أن يتفادوا من هذه الورطة ، ومن أن يحدث ضعف في صلة هذه الأمة الفكرية والعقلية بحقائق الاسـلام الأولية ، وتصوراته الأساسية ، بل ازدادت ايمـانا بها ، واذعانا لهـا ، واقبالا عليها ، وعلى ذلك فلم تمن هذه الأمة بما مني به الهنادك والفرس ، حيث ظلوا قرونا ، ولا يزالون ، يعضون على التقاليد والطقوس ، والأعراف الدينية والاجتماعية بنواجـذهم ، بينمـا يئسوا من التطبيق بين الدين والعقيدة ، وبين العقل والعـلم ، ومن جدارة دينهم لمسايرة الحيـاة البشرية المتطورة . والركب البشري المتقدم ، ورأوا بقاء دينهم في أن يكون على عزلة تامة من العلم والمعرفة ، وأن لا يرتفع عنه ذلك الركام الهائل من الجهل

المطبق والأوهام والأحلام الكثيفة ، الذى تراكم عليه ، وسد عليه منافذ الهواء والنور .

ومن ثم فهؤلاء المخلصون الذين قاموا بهذه المسئوليةالجليلة ، مسئولية العرض الجديد للشريعة الاسلامية عبر العصور الاسلامية ، يستحقون كل تقدير واعتراف وشكر ودعاء ، منا ومن الأجيال المتلاحقة ، حيث تفادوا بهذه الأمة من أن تقع فريسة الصراع بين الدين والعلم ، والحروب الدموية الحمراء ، التى تأججت نارها واشتد أوارها بين المعسكرين المتنافسين — الدينى والعلمى — فى القرون الوسطى فى العالم المسيحى ، مما اضطر العالم الأمريكى « درابر » (John William Drapper) أن يضع كتابه الشهير « الصراع بين الدين والعلم » Comfiet Bettwen Religion and Science

وظل هذا الواجب العظيم المبارك المفيد يؤدى عبر التاريخ الاسلامى ، وقيض الله فى كل عصر من المجددين والمصلحين والمتكلمين ومن قام بعرض جديد للاسلام ، وتقديم عصرى لتعاليمه بكل جدارة ومقدرة وتوفيق .

وبجانب ذلك لم يخل عصر من العصور الاسلامية من أولئك العلماء الراسخين فى العلم ، المتذوقين للشريعة الاسلامية ،

المطلعين اطلاعا دقيقا على عقلية الجيل الجـديد ، والاتجاهات والملابسات التى يعيشها ، الذين راقبوا هـذا العرض الجـديد العصرى للاسلام مراقبة أمينة ، حتى لا يواكبه انحراف عن الصراط المستقيم ، وعدول عن الجادة التى وضع عليها سـيدنا محمـد صلى الله عليه وسلم هذه الأمة ، وحتى لايختلف هذا « الذوق الدينى » و « الفهم الدينى » ـ الذى يكونه هذا التعبير الجديد عن الاسـلام ـ عن « الذوق الدينى » و « الفقـه الدينى » الاسلاميين الأصليين اللذين سيظلان « مثاليين » الى يوم القيامة ، وابدوا ملاحظاتهم عن هذا العرض الجديد للاسلام فى غير محاباة وتردد ، مع كل تقدير لهذا العمل والاعتراف بقيمتـه ، ومن غير شك فى نية القائمين بالتجديد والتعبير الجديد ، ووضعوا الأصبع ـ بكل حرية ـ على الأخطاء والعثرات ، والتطرف أو المغـالاة التى وجدوها قد تطرقت الى هذا العمل الجليل ، وما حال بينهم وبين هذه الحسبة الدقيقـة وابداء الملاحظة الصريحـة عليه ، شهرة هؤلاء الكتاب والمفكرين العاملين فى مجال التقديم العصرى للاسلام ، ولا مكانتهم فى ما كان يتسم به هؤلاء المفكرون المؤلفون من زهد وتقوى وورع ، وذلك لأن رائدهم كان مجرد الاخـلاص والاحتساب ، فأعربوا عن آرائهم وملاحظاتهم وانطباعاتهم ومـا كانوا يتخوفونه من وراء ذلك من نتيجة سلبية سيئة ، فى كل اتزان

واقتصاد ، واخلاص وحياد ، غير مدفوعين بنزعة من النزعات .

وقد استقبل هؤلاء المفكرون والمجددون بدورهم هذه « المحاسبة العلمية » والمراقبة الدينية المخلصة — فى أغلب الأحيان — فى سرور وانشراح صدر ، وتلقوها بالقبول والشكر ، وعنوا بها عناية جدية ، واستفادوا منها فى عملهم فجعلوه أنفع وأجدى ، وأعدل وأكثر خيرا للأمة المسلمة وللبشرية جمعاء ، وظهور هذين النوعين من العلماء ظل مستمرا ومتصلا منذ فجر التاريخ الاسلامى ، وسيظل الى يوم القيامة ، كما ينبىء به الحديث النبوى الذى رواه البيهقى :

« يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين »(١) .

والواقع أن وجود هاتين الطبقتين ضرورى ، وعلى تعاونهما العلمى المتبادل يتوقف بقاء هذا الدين سليما ، محافظا على أصالته ، ونقائه ، بعيدا عن كل تحريف وعبث ، وافراط وتفريط ، وذلك هو الذى يغذى تطوره الفكرى والعقلى المستمر ، ويجعله صالحا لكل عصر ومصر .

منذ مطلع القرن التاسع عشر المسيحى ظهر فى العالم

---

(١) مشكلة المصابيح ، كتاب العلم ، الفصل الثانى .

الاسلامى — الذى كان يعانى التدهور الفكرى والانحطاط السياسى — اضطراب فكرى عجيب[1] بفعل نفوذ أوربا السياسى وتقدمها المادى الحثيث ، وغزوها المتتابع ، وانتصاراتها المتواصلة فى مجال العلم والعلوم التجريبية ، مما جعل القيام بعملية « عرض الاسلام فى الأسلوب العصرى » فرض كفاية ان كان مندوبا قبل ذلك ، فهؤلاء الشباب المثقفون ولا سيما الذين سافروا الى أوربا فى أواخر القرن التاسع عشر أو فى أوائل القرن العشرين ، واحتكوا بأهلها ، وأمكنهم أن يختلطوا بالحكام الانجليز أو المفكرين الغربيين ، قد تزعزعت جذور العقائد الاسلامية فى قلوب كثير منهم بل تنكروا لها واشمأزوا منها ، ووقع منهم عدد كبير فريسة الردة الفكرية والحضارية[2] .

هنالك نهض فى مختلف نواحى العالم الاسلامى كتاب وعلماء حاولوا أن يواجهوا هذا الموقف الحرج ، وتقلدوا مسئولية الدفاع عن الاسلام ، والشريعة الاسلامية ، والحضارة الاسلامية ، وتاريخ الاسلام والمسلمين ، ونظام حكمهم وتعليمهم . وساهموا فى

---

(١) اقرأ للاطلاع على مراحل ارتقائه وتطوره فى الأقطار الاسلامية كتاب المؤلف « الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية فى الاقطار الاسلامية » طبع دار القلم الكويتية ، الطبعة الثالثة .

(٢) يرجع الى رسالة المؤلف السائرة « ردة ولا أبا بكر لها ». [٠]

القيام بهذه الخدمة المشرفة ، فى كل من تركيا ، ومصر ، والشام ، والهند ، كل حسب عقليته وثقافته ، ودراسته وتربيته ، وجدارته ومقـدرته ، وعلى الرغم من الاعتراف بقيمة هـذه المحـاولة وجدواها — فقد انتشلت عددا وجيها من النفوس الصالحة ، من حماة تلك البلبلة الفكرية ، والردة الحضـارية التى كانت تهب أعاصيرها الهوجاء فى العـالم الاسـلامى ، فانهـا كانت تتسم بالأساليب الدفاعية والاعتذارية ، تبدو كأنها ترمى أولا وقبل كل شىء الى ازالة الفجوة — أو تضييقها على الأقل — بين الحضارة والقيم الاسلامية والحضارة والمثل الغربية ، كما كانت تنم عن تقبل المصطلحات السياسية والاقتصادية الغربية على علاتها أو تطبيقها على التعاليم الاسلامية والتاريخ الاسلامى ، دون تحفظ واحتياط . وربما نجدها تنطوى على تأويل بارد وتفسير غريب للاسـلام وتعاليمه . كأنه يهدف تقريب التعاليم الاسـلامية الى المقررات الغربية أو المفاهيم التى آمن بها الغرب .

ومن ثم حاسب الراسخون فى العلم من العلماء المعاصرين هذه المحاولة — مع الاعتراف بقيمتها الجزئية — محاسـبة علمية وأبوا أن تقبل الأمة المسلمة كلها هذا « الفهم الدينى » الذى تنشئه هذه الكتابات ، وأخذوا بأيدى جماعة كبيرة من الشباب المسلمين المثقفين — الذين كانوا قد تأثروا بذلك — الى الصراط المستقيم ،

وعلى ذلك فقد سدوا منافذ « التحريف العالمى » ، التى فتحتها كتابات هؤلاء الأفاضل و « بحوثهم » .

وقد تم أكبر قسط من هذا العمل الذى يمتاز بمتانته وعمقه واعتداله ، فى الهند التى كانت أكبر مسرح للصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، بحكم كونها خاضعة خضوعا مباشرا لسيطرة الاستعمار البريطانى ، وقد كانت الطبقة المثقفة المسلمة ، والشعب المسلم الهندى يحمل الشىء الكثير من روح المقاومة وقوة التماسك أمام الزحف الغربى المعنوى المدمر ، وذلك بفضل وجود مراكز التعليم الدينى والثقافة الاسلامية القوية فى شبه القارة الهندية ، وبتأثير العلماء الربانيين ، وأصحاب القلوب المشرقة الصافية ، والحياة الايمانية الجميلة الجذابة ، المؤثرة للآجلة على العاجلة ، والتطوع والاحتساب ، على الرواتب والمناصب ، الذين لم تؤثر الحضارة الغربية وقيمها ومثلها فى حياتهم وتفكيرهم ، ثروة لم تكن متوفرة فى كثير من البلاد الاسلامية والعربية ، أو كانت هذه الروح قد ضعفت فيها واضمحلت من أجل اضمحلال هذه العوامل والمؤثرات منذ مدة طويلة .

وفى ناحية أخرى ، قد ملأ قلوب الشعب المسلم الهندى

كراهية وسخطا ما واجهه من اخفاق حرب الاستقلال المستميتة فى ١٨٥٧ م التى قادهـا ضـد الحكومة الانجليزية ، والشعب البريطانى الأوربى المسيحى الذى كان يمثل هذه الحضارة وهذه الفكرة ، وهذه الفلسفة للحياة ، وكان يحمل لواءها ويتبنى الدعوة اليها ، وقد انبثقت من هذه الكراهية والسخط حركة الخلافة الجبارة ، وحركة رفض الموالاة مع الانجليز القوية فى الربع الأول من القرن العشرين ، وكل ذلك حال بين الشعب المسلم الهندى وبين انجرافه مع تيار الالحاد والردة الحضارية الذى كان ينطلق ويتدفق بكل قوة من أوربا .

كانت مقاومة المفاهيم والقيم الغربية على قدم وساق تؤدى دورها فى لون خاص ، اذ استرعى الاستاذ الكبير السيد أبوالأعلى المودودى فى منتصف هذا القرن انتباه الطبقة المثقفة من المسلمين بمقالاته القيمة التى كان يكتبها فى مجلته الغراء « ترجمان القرآن » الصادرة من حيدر آباد ـ الهند ، فى نقد الحضارةالغربية ، ونظام الحياة الغربى ، المقالات التى تتميز بأسلوبها الهجومى ، ونقدها اللاذع لحركة « التقدمية » و « والتجدد » وفكرة « القومية » المتطرفة التى نجمت وباضت وفرخت فى حضن الثقافة الغربية ، وكذلك طرق موضوعات وقضايا فى صميم الشريعة الاسلامية ، والقوانين الاسلامية ، تلك المباحث والقضايا الهامة التى استهدفت

لهجمات « المتجددين » بصفة خاصة ، وسطر قلمه حولها مقالات قوية ، مؤثرة ، معضدة بالدلائل ، أمثــال الربا ، والحجــاب ، والجهاد والأضحية ، والرق ، وحجية الكتاب والسنة ، والأحوال الشخصية وما اليها من المسائل الهامة ، وســيكون من الاجحاف الكبير اذا لم نوف حقه من الاعتراف بما لعبته مقالاته هــــذه — التى ظهرت فيما بعد فى صورة كتب ورسائل — ومؤلفاته ورسائله المستقلة من دور رائع فى اعادة الثقة الى الطبقة الذكية ، المثقفة بالثقافة الغربية ، بالاسلام وبقيمه وتصوراته ، وفى تخليصهــا من « مركب النقص » و « نفسية الهزيمة الداخلية » حيــال الاســلام وتعاليمه ، مما جعل بعض الكتــاب يدعوه « متكلم الاسلام » .

ولكان من حسن حظ الاسلام وسعادة جد المسلمين لو جعل الأستاذ المودودى هذا العمل وحده نصب عينيه وجند له مواهبــه الغنية ، ووقف عليه حياته العلمية الخصبة ، ولكنه هب يمارس عملا آخر نستطيع أن نسميه (الصياغة الجديدة للفكر الاسلامى) واعتبره اساسا فكريا لنهضة المسلمين ، ولجمع كلمتهم ، وللجماعة الاسلامية ، ونعنى بذلك بصفة خاصة كتابه المستقل الذى أسماه « المصطلحـــــات الأربعــة فى القرآن » الذى فسر فيه تلك المصطلحــات القرآنية الأربعة التى يدور عليهــا الاســلام ،

وتقوم عليـــه تعاليمه ودعوته ، واليهــا تستند « اقامه الحكـم الاســـلامى » أو « اقامة الدين » تفســـيرا خاصـــا يتميز بالطابع السياسي ويدور حول « حاكمية الاله » و « سلطان الرب »يحدد علاقة العبد بربه فى مفهوم خاص وفى حدود معينة وينحصر به عرض نزول القرآن والدعــوة الاسلامية فى تأسيس « الحكـم الاسلامى » و « اقامة الحكومة الالهية » فحسب .

وكان له موقف خاص هى نتيجـــة طبيعية منطقية نحـــو « الوسائل » و « الغايات » والعبادة والذكر ، والأركان الأربعة العمليـــة .

والكتاب الذى بين يدى القارىء محاولة مخلصة ترمى الى الاعراب عن « خواطر » و « خلجات » كانت تساور النفس من مدة طويلة ، وعمل بالوصية النبوية « الدين النصيحة » .

وقد اجلنا هذا العمل سنين طوالا رغم حوافز ملحة كثيرة الى تحقيقها وأسئلة كانت تتردد من جهات مختلفة عن الجمـــاعة واسسها الفكرية ، وعن طبيعة الاختلاف لها ، وأســـــبابه ، والكتابة فى هذا الموضوع شائك دقيق ، فله اتصال وثيق بمجموعة حبيبة من الاخوان الكرام ، والزملاء الفضلاء الذين يساهمهم المؤلف فى كثير من مجالات العمل الاسلامى ، والكفاح فى سبيل القضايا

الاسلامية ، واتصال وثيق بالحركة التى لا ينكر فضلها فى ايقاظ الفكر الاسلامى ، واعادة الثقة الى نفوس كثير من الشباب بصلاحية الاسلام ، والقوة الكامنة فيه للقيادة فى هذا العصر ، وكذلك كان المؤلف لا يأمن أن يستغل هذا البحث لبعض مصالح سياسية أو حزبية ، أو يحمل ذلك على اتجاهات شخصية ، أو ردود فعل لا يسلم منها الانسان الا اذا عصمه الله .

واذا كان هذا هو الشأن ، فالحديث فى هذا الموضوع دقيق محرج ، ومثير للتشككات والتساؤلات الكثيرة ، وقد سهل على الناس الاسترسال اليها والتوسع فيها ، وصعب عليهم حسن الظن بصاحبه والتماس العذر له ، وقد طال العهد بالنقد البرىء النزيه، المجرد من الأغراض السياسية والدوافع الشخصية، الذى لم يكن يبتغى به الا وجه الله ، وحب هذا الدين الذى هو مصدر كل خير وسعادة ، وعزة وقوة ، وايثاره على الأشخاص والجماعات ، والرئاسات والقيادات ، وعلى أصحاب المواقف المحمودة ، والمآثر الجليلة فى الدعوة والتربية ، والجهاد والبطولات ، كما كان شأن أئمة الجرح والتعديل من المحدثين ، فى أمر كبار الصالحين ، والزهاد والمتقفين ، وائمة فن التزكية والتربية وأمراء الجيوش الاسلامية ، وقادة الفتح ، وخلفاء

المسلمين(١) .

وقد أضاف الى هذه المشكلة أن منهج المؤلف الذى التزمه فى تأليفه كان منهجا علميا يتسم بالايجابية والهدوء ، والابتعاد عن المسائل الخلافية والمناقشات اللفظية ، واذا كان لابد من ذلك تعرض له جانبيا(٢) ، ثم عاد الى خطه الأول من الحديث فى المبادىء والأسس ، والأهداف والغايات ، ولم يكن من السهل عليه ، والمرغوب له ، العدول عن هذا المنهج الذى آثره لنفسه وحافظ عليه طوال حياته(٣) .

ولم يقدم المؤلف الى هذا البحث الا حين عرف وعاشر كثيرا من الذين تخرجوا فى المدرسة الفكرية التى تقوم على كتابات الأستاذ المودودى وحدها ، وتعتمد على فهمه للدين ، وتفسيره له ، ورضعوا بلبانها ، ونشأوا فى أحضانها ، لا يدينون فى ثقافتهم الدينية وفهمهم لحقيقة الدين لمدرسة دينية أخرى ــ بمعنى المدرسة الواسع ــ أو لمكتبة اسلامية أخرى ــ بمعنى المكتبة

(١) يرى القارىء نماذج رائعة من هذا النقد الصريح الأمين فى كتب الجرح والتعديل مثل «كتاب المجروحين» لابن حبان، «وميزان الاعتدال» للذهبى ، ومقدمة صحيح مسلم .

(٢) كما فعل فى كتاب «النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن» .

(٣) يستثنى من ذلك كتابه « القاديانى والقاديانية » وهو الكتاب الوحيد الذى الفه فى الرد على طائفة مارقة تدعى الاسلام .

الواسع — واذا كان لهما نصيب فى عقليتهم وثقافتهم الدينية ، فهو نصيب ضئيل سطحى ، وأفزعته اتجاهات فكرية ، وفهوم وتفسيرات للذين بدت طلائعها فى الحديث والكتابة ، والفكر والتأليف ، والعمل والتطبيق ، وخاف أن تنشأ طبقة أو مجتمع فيه عدد كبير من الشباب الأذكياء المثقفين ، والعاملين لمجد الاسلام المخلصين ، من أصحاب الهمة العالية ، والنظر البعيد ، والايثار وروح التضحية ، فى خدمة الاسلام والمسلمين ، على منهج يختلف عن المنهج الاسلامى الأول فى الروح والدوافع ، والنفسية والعقلية، والأهداف والغايات ، والمثل والقيم ، ويضعف ما جاهد له الرسول وأصحابه ، من اخلاص الدين لله ، والعمل للآخرة ، وروح «الايمان والاحتساب»(١) المسيطرة على الحياة كلها ، السارية فى الأعمال والتصرفات بأسرها ، ويتحول هذا الكفاح

---

(١) تشترط الأحاديث الصحيحة الكثيرة « الايمان والاحتساب » لوقوع الأعمال الصالحة — حتى الفرائض والواجبات — موقع القبول عند الله ، واستحقاق الفاعل للثواب والأجر عليها ، جاء فى صحيح البخارى « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » « ومن قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » ، وجاء بيان « الايمان والاحتساب » فى رواية للبخارى كما يلى : « رجاء ثوابها وتصدق موعودها » وتلك هى روح الأعمال ، والقوة التى تحرك الأمة للعمل ، والاحتفاظ بهذه الروح الى يوم القيامة مسئولية عظيمة على عاتق الدعاة والمصلحين فى هذه الأمة .

الى مجرد عملية تنظيم جماعى ، أو محاولة الحصول على الحكم والسلطان للمسلمين ، وقد يكون تحولا لا رجعة بعده الى الأصل والمصدر ، كما جرب ذلك مرارا فى تاريخ الأديان والفرق ، والدعوات والحركات ، فأقبلنا — مضطرين علم الله — على التنبيه على هذا الخطر — ولو كان غامضا أو بعيدا — فالحب يبعث على الاشفاق ، والنصح يدفع الى الانذار .

والمؤلف يحمد الله على أنه وفقه لتأليف هذا الكتاب فى حياة الأستاذ المودودى ، فقد وضعه فى رمضان ١٣٩٨ هـ (اغسطس ١٩٧٨ م) ، وصدر من المطبعة فى المحرم ١٣٩٩ هـ (ديسمبر ١٩٧٨ م) ، وبادرت بارسال نسخة منه مع رسالة شخصية رقيقة اليه اعتذر فيها عن هذا النقد العلمى الذى كان رائده الاخلاص والاشفاق ، والنصيحة لله ولرسوله ولدينه ، وابداء بعض الملاحظات عن بعض تحقيقاته وتعبيراته ، وقد ظل الطرفان على صلات ودية ، وحسن ظن كل واحد بصاحبه ، واعتراف وتقدير ، وجاءنى رد لائق بمقامه العلمى والدعوى ، وحسن تلقيه للبحوث العلمية ، كتبها فى ٢٣ من يناير ١٩٧٩ م من لاهور ، يشكر فيها على هذه الملاحظات ويدعو المؤلف الى مراجعة سائر كتاباته ومؤلفاته ، وابداء مايتخوف منه على الفكرة الدينية الصحيحة ، ويقول : « اننى لا أستطيع أن

اقول أنى سأوافق عليها تماما ، ولكنى ســـأتأمل فيها ، وانني لا أعتبر نفسى فوق مستوى النقد ، واختلاف وجهـات النظر » ، وظهرت للكتاب طبعة فى باكستان أطلع عليها أعضاء الجماعة الاسلامية ، وتناول الكتاب المجلات والصحف الباكستانية ــ بمـا فيها المجلات والصحف التى تعتبر لسان حال الجماعة ــ بالنقـد والتقريظ وعلقت عليه ، كما تحدثت عن الطبعة الهندية الصحف والمجلات الاسلامية التى تصدر فى الهند ، وبعض مجلات الجماعة وصحفها .

وفوجىء العالم الاسلامى وفجع بوفاة هذا المفكر الاسلامى الكبير فى ٢٢ من سبتمبر ١٩٧٩ م ، وفوجىء المؤلف بالنبـــأ وهو فى دلهى فى حفلة المجلس الاستشارى للجماعات والقيـــادات الاسلامية فى الهند ، وشاء الله أن يكون بجوار زملائه واصـــدقائه أعضاءالجماعةالاسلامية الهندية،وهم من أنشط أعضاء هذا المجلس الاستشارى العاملين ــ صباح يوم الاحد غرة ذى القعدة ١٣٩٩ هـ (٢٣ من سبتمبر ١٩٧٩ م) ويلقى كلمة عزاء وتأبين فى احـــدى حفلات هذا المجلس التى مثلت فيها كل المنظمـــات الاســـلامية السياسية وحضرتها شخصيات الشعب الاســـلامى البـــارزة ، بمناسبة معركة الانتخابات القادمة للبرلمان الهنـــدى ، ويدلى بحديث ضاف على اثر عودته من العاصـــمة الى مقر عمله ، عن الراحل العظيم ، لمندوب المعهد العالى للدعوة والفكر الاســـلامى

ندوة العلماء ـ لكهنئو(١) ، وفي تفصيل اكثر لمندوب صحيفة ندوة العلماء الأردية « تعمير حياة » ، يذكر فيه صلته بالمرحوم الاستاذ المودودى التى يرجع تاريخها الى الثلاثينات الأولى من هذا القرن المسيحى ، ومساهمته اياه فى الدعوة والفكر ، مع مقتطفات من رسائله ، تلقى ضوءا على ما كان بينهما من صداقة وثقة وتقدير .

والمؤلف الآن يحمد الله على أنه لم يضطر الى نشر هذه الملاحظات النقدية على اثر وفاة الأستاذ المودودى ، وان كان الحق حقيقا بأن يقال فى الحياة وبعد الممات ، وقد جرى على ذلك كثير من علماء الاسلام ، فأبدوا آراءهم الحرة وملاحظاتهم الجريئة عن كبار الراحلين بعد وفاتهم ، ولم يشعروا فى ذلك بحرج أو اساءة الى الراحلين ، والحق أولى من الرجال ، ولكن ابداء ما يريب ويحيك فى الصدر فى حياة من يتصل به هذا التعليق او النقد ، أولى وأجمل ، وأيسر وأسهل ، من ابداءه ، بعد وفاته بأيام وشهور ، والله المسئول أن يجزل له مثوبة الدعاة والمجاهدين ، ويغفر له الزلات التى لا يخلو عنها المتحرون للحق من الكتاب والمفكرين ، والعلماء والمؤلفين .

---

(١) وقد ظهر هذا الحديث فى صحف الندوة العربية وبعض المجلات فى العالم العربى .

ونرجو أن اخواننا الذين ينتمون الى « الجماعة الاسلامية » سيكونون في مقدمة من يرحب بهذا الكتاب . ويقراوه قراءة جد وامعان ، ولا يسارعون الى اتهام هذا العمل بعصبية حزبية ، أو بنزعة شخصية ، او ارضاء حاجة ذاتية، ولا يرون فيه معارضة للحركة الاسلامية ، أو محاولة اقامة الحكم الاسلامى الذى بدت تباشيره ساطعة فى الأفق ، ويجب أن يستبشر به كل من يحب هذا الدين ، ويسعى لمجد هذه الأمة ويعمل لانهاض الاسلام والمسلمين .

والذين يحاولون أن يخدموا الدين بكل جد واخلاص ، ولا يريدون الا اعلاء كلمة الله ورفع شأن الاسلام ، وينشدون الحق والصواب ، ويحرصون على تصحيح « الفهم الدينى » وتصعيده واكماله ، والحق هو المقياس الوحيد لديهم — أولا واخيرا — لا جماعة من الجماعات — مهما كان وثيق الصلة بها — ولا فرد من الأفراد — مهما كان عظيما عنده — فانهم دائما يتلقون النقد الايجابى البناء ، والآراء والتوجيهات المخلصة مهما خالفت آراءهم ، بصدر رحب ، وقلب منشرح .

وكانت هذه الحسبة العلمية المخلصة النزيهة ، فى طليعة العوامل التى صانت الأمة المسلمة عن الانحراف عن الجادة ، والتحريف للدين والشذوذ الجماعى ، والعثرة المردية ، فى تاريخها

الطويل ، ورحلتها الشاقة الشاسعة فى ميادين الاجتهاد ، والتجربة ، والاستنباط والاستنتاج ، واجهاد الفكر والرأى ، ويرجع اليها الفضل فى تلقيح الأفكار ، وتنقيح الأنظار ، وتوسع المكتبة الاسلامية الفقهية التوسع الذى لا نظير له فى تاريخ الديانات والثقافات ، ودفع الحرج عن الأمة ، وانارة السبيل للسالكين ، وحفظ القادة والزعماء ، والمفكرين والعلماء عن الافتيات فى الرأى ، والاعجاب بالنفس وادعائهم أو ادعاء اتباعهم العصمة لهم ، وحفظ الأمة عن أن تقع فريسة لغلو أو تطرف أو شذوذ أو عثرة .

وقد فقدت هذه الحسبة — العلمية الدينية — أو ضعفت ضعفا كبيرا فى ديانات أخرى ، خصوصا فى المسيحية ، فكانت فريسة تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، ونشأت أجمات كثيفة ، وغابات مخيفة ، على أديم هذه الديانات توارت عنها اصالتها وتعاليمها الأولى ، ولذلك شددت الشريعة الغراء على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والقيام بهما فى كل زمان ومكان ، وحذرت من التوانى فيهما والمحاباة لأهل الوجاهة والسلطان ، وجعلت « كلمة حق عند سلطان جائر » أفضل الجهاد ، وقام به المسلمون ، وخصوصا علماؤهم بهذه الفريضة فى كل زمن فاسد وحكم جائر ، وسمح له أمير

المؤمنين عمر لكل ضعيف ومغمور ورحب به ، فقـال : « لا خير فيهم اذ لم يقولوها لنا ، ولا خير فينا اذ لم نقبل»(١) وقال مرة : « امرأة أصابت ورجل أخطأ »(٢) .

ولا يمنع من هذا التنبيه على خطأ أو زلة ، والارشاد الى الأنفع الاصلح ، أو الأقوم الاسلم ، تبوء من تعرض لهـذا الخطأ الاجتهادى أو السهو والنسيان اللذين هما من خصائص الانسان مكان قيادة ، أو اشتغاله بمصلحة اجتماعية للأمة ، أو سـلامة نية ، أو غناؤه فى كفاح أو نضال ، فقد كان الصحابة رضى الله عنهم ينبهون أفضل الرسل وخـير البشر صلى الله عليه وسلم على السهو ، وقد قال ذو اليدين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صلى الرباعية اثنتين : أقصرت الصلاة أم نسيت يارسول الله ؟ (٣) وعزل أمير المؤمنين عمر ــ وهو أعرف المسلمين بمصالح

---

(١) كتاب الخراج للامام أبى يوسف ص ٧ .

(٢) أخرج عبد الرازق عن عمر أنه قال « لا تغالوا فى مهـر النساء : فقالت امرأة : ليس ذلك لك يا عمر إن الله تعالى يقول (وآتيتم احداهن قنطارا) فقـال عمـر : امرأة خاصمت عمـر فخصمته » وأخرجه الزبير ابن بكار بلفظ « امرأة أصابت ورجل أخطأ » (راجع نيل الأوطار ج ٦ ص ١٧٠) .

(٣) روى الترمذى فى الجامع الصحيح باسـناد عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم انصرف من اثنين ، فقال ذو اليدين أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أصـدق ذو اليدين ؟ ، فقـال الناس نعم . فقـام رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم الثـتين الأخـريين ثـم سـلم ، ثـم كبـر فسـجد مثـل سـجوده أو أطول ، ثم كبر فرفع فسجد مثل سجوده أو أطول ، سـنن الترمذى أبواب الصلاة ، والحديث فى الصحيحين والموطأ .

الاسلام والمسلمين ـــ سيدنا خـالدا فى معركة اليرموك ، وهى
المعركة الحاسمة المصيرية فى تاريخ الاسلام ، ونصب ابا عبيدة
مكانه ، ولو أخذ المسلمون فى ماضيهم عدم احداث التشويش فى
صفوف المسلمين بعين الاعتبار وكفوا عن التنبيه على الزلل والخطأ ،
لانقطع هذا التيـــار الحيوى المبـــارك من حركة الأمر بالمعروف ،
والنهى عن المنكر ، والحسبة فى الدين ، والشهادة بالحق ، عن
جهاز الأمة الاجتمـــاعى والخلقى ، ووقف القلب عن توزيع الدم
الصحيح الى الشرائين والعروق ، وكان ما يعقب ذلك من التباس
الأمور على أهل العلم والراى ، وانجراف الصـامة للتيارات ،
واختفاء كثير من حقـــائق الدين ، أعظم وأجل من اعتراف هـــذا
القائد أو الامـــام أو العبقرى بخطئه فى التعبير ، أو تقصيره فى
الفهم أو التفهيم ، فان العصمة لله وحده ، وكل يؤخذ من قوله
ويرد الا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما « الجماعة الاسلامية » فهى أولى بالعمل بهذا المبـــدأ
فدستورها الأساسى ينص على ذلك فيقول :

« لا يعتبرن ـــ أحد ـــ أحدا معيارا للحق ، الا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ولا يظنه أعلى من أن يناله أحد بالنقد او يجد
فيه مأخذا ، ولا يسوغ لأحد أن يخضع لآخر عقليا وفكريا ، بل يجب

عليه أن يقيس كل انسان بهذا المقياس الالهى الكامل ، ويضعه بعد القياس والوزن فى مكانه الذى يستحقه»(١) .

ونحن نستبعد جدا من الجماعة التى كان منطلقها من النقد الجرىء الشامل لكل العصور الاسلامية ، والطبقات الاسلامية ، وتقييم الحركات والجهود تقييما حرا بعيدا عن كل عصبية جماعية واحكام تقليدية ، أن يكون عند اعضائها فى الداخل أو اصدقائها فى الخارج ، تعظيم يبلغ حد التقديس لمؤسسها والداعى اليها ، وأن تكون عندهم حساسية زائدة فى كل ما يوجه له من نقد أو ملاحظات أو مآخذ(٢) .

وقد ضرب الاستاذ ابو الأعلى المودودى لذلك مثلا عمليا حينما وضع كتابه « التجديد واحياء الدين » (باللغة الأردية) الذى تناول فيه مآثر عدد من كبار رجال التجديد والاصلاح فى تاريخ الاسلام بالنقد والتحليل ، ولم يحل بينه وبين أن يبدى

---

(١) دستور الجماعة الاسلامية الهندية — معدلا — طبع المكتبة الاسلامية المركزية .

(٢) كانت مفاجأة حقا للمؤلف حين تلقى رسائل حانقة تنبىء عن استياء شديد ، ونقد لاذع من عدد من المنتمين الى الجماعة فى الهند على اثر صدور الطبعة الأردية لأنه كان يتوقع منهم أن يكونوا أوسع صدرا ، واكثر احتمالا من غيرهم من غلاة المنتسبين الى جماعات أخرى ، وانهم يميزون بين الخلاف الشخصى الحاقد والاختلاف المبدئى الهادف .

آراءه وانطباعاته نحو هؤلاء الاعلام ، عظمتهم وشهرتهم ، وعلو مكانتهم عند الناس .

وهذا الكتاب الذى هو بين يدى القارىء الكريم ، محاولة متواضعة فى هذا الاتجاه الذى سار فيه الأستاذ أبو الأعلى ، ومعذرة ، فلا يطبق قانون « اتجاه واحد » (One way Traffic) الذى يعمل به فى تنظيم حركة المرور ، على النقد العلمى ، والبحث عن الأصلح الأنفع ، وعرض حصيلة الدراسات ، وعصارة التفكير ، ولو طبق هذا القانون على عالم التفكير والتأليف لشل الذهن الانسانى ، وتعطلت الحركة العلمية ، ووقف سير الاصلاح والتجديد ، والموافاة بالمفيد الجديد ، الى الأمة التى هى كشجرة طيبة أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

١٣ من ذى القعدة الحرام ١٣٩٩ هـ

٩ اكتوبر سنة ١٩٧٩ م

راىء بريلى ، (الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم

هل بقيت المصطلحات الأربعة القرآنية مجهولة مغمورة عبر قرون متطاولة ، وغابت عن الناس روح الاسلام الحقيقية ؟

يحاول المؤلف الشهير والمفكر الاسلامى المعاصر الأستاذ أبو الأعلى المودودى مؤسس « الجماعة الاسلامية » فى كتابه المعروف « المصطلحات الأربعة فى القرآن » أن يؤكد — وهو يتحدث عن كلمات : « الاله » و « الرب » و « الدين » و « العبادة » — ان هذه الكلمات القرآنية والمصطلحات الاسلامية الأساسية ، كان يفهمها جيدا كل من كان يخاطبه القرآن لدى نزوله ويدرك أغوار معانيها الأصيلة ، لأن القرآن عربى وكان المخاطب عربيا ، يقول :

« لما نزل القرآن فى العرب وعرض على الناطقين بالضاد ، كان حينئذ يعرف كل امرىء منهم ما معنى « الاله » وما المراد

بـ « الرب » لأن كلمتى « الاله » و « الرب » كانتا مستعملتين فى كلامهم منذ ذى قبل ، وكانوا يحيطـون علما بجميـع المعانى التى تطلقان عليها ، ومن ثم اذا قيل لهم : لا الـه الا الله ولا رب سواه ولا شريك له فى الوهيته وربوبيته ، أدركوا ما دعوا اليه تماما ، وتبين لهم من غير ما لبس ولا ابهام أى شىء هو الذى قد نفاه القائل ومنع غير الله أن يوصف به ، واى شىء قـد خصـه وأخلصه لله تعالى ، فالذين كفروا انما كفروا عن بينة ومعرفة بكل ما يبطله وينعى عليه كفره بألوهية غير الله وربوبيته ، وكذلك من آمن فقد آمن عن بينة وبصيرة بكل ما يوجب قبول تلك العقيـدة الأخذ به أو الانسلاخ عنه .

« وكذلك كانت كلمتا « العبادة » و « الدين » شائعتين فى لغتهم وكانوا يعلمون ما العبد ، وما الحـال التى يعبر عنهـا بالعبودية ، وما هو المنهاج العمـلى الذى يطلق عليـه اسم « العبـادة » وما مغزى « الدين » وما هى المعانى التى تشـتمل عليه هذه الكلمة ؟ ومن ثم لما قيل لهم : « ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » وادخلوا فى دين الله منقطعين عن الأديان كلهـا ما أخطأوا فى فهم هذه الدعوة التى جاء بهـا القرآن . وما أن قرعت كلماتها اسماعهم حتى تبينوا : أى نوع من التغيير فى نظام

حياتهم جاءت تطالبهم به تلك الدعوة ؟ »(١) .

لكن الحال لم يعد على هذا المنوال ، بل غابت عن الناس وخفيت عليهم هذه الحقائق المشرقة ، وتراكم على المصطلحات الأربعة فى القرآن — التى هى فى منزلة المبادىء الأولية لدى الاسلام — غبار كثيف من الجهل والعجمة ، والغفلة والاهمال ، وكان ذلك على اثر انقراض عهد النبوة ، والجيل الذى أدرك العصر الجاهلى ونشأ فى الاسلام ، يقول الاستاذ الفاضل فى السطور الآتية :

« ولكنه فى القرون التى تلت ذلك العصر الزاهر ، جعلت تتبدل المعانى الأصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات ، تلك المعانى التى كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن ، حتى أخذت تضيق كل كلمة من تلكم الكلمات الأربع عما كانت تتسع له وتحيط به من قبل ، وعادت منحصرة فى معان ضيقة محدودة ومخصوصة بمدلولات غامضة مستبهمة ، وذلك لسببين اثنين :

« الأول : قلة الذوق العربى السليم ونضوب معين العربية الخالصة فى العصور المتأخرة ، والثانى : أن الذين ولدوا فى

---

(١) « المصطلحات الأربعة فى القرآن » ص ٨ — ٩ الطبعة الرابعة طبع « الدار الكويتية » .

المجتمع الاسلامى ونشأوا فيه ، لم يكن قد بقى لهم من معانى كلمات « الاله » و « الرب » و « العبادة » و « الدين » ما كان شائعا فى المجتمع الجاهلى وقت نزول القرآن . ولأجل هذين السببين أصبح اللغويون والمفسرون فى العصور المتأخرة يشرحون أكثر كلمات القرآن فى معاجم اللغة وكتب التفسير بالمعانى التى فهمها المتأخرون من المسلمين بدلا من معانيها اللغوية الأصلية ، ودونك من ذلك أمثلة :

« ان كلمة « الاله » جعلوها كأنها مترادفة مع كلمة الأصنام والأوثان ، وكلمة « الرب » جعلوها مترادفة مع الذى يربى وينشىء ، وللذات القائمة بأمر تربية الخلق وتنشئتهم . وكلمة « العبادة » حدودها فى معانى التأله والتنسك والخضوع والصلاة بين يدى الله . وكلمة « الدين » جعلوها نظيرا لكلمة النحلة (Religion) وكلمة « الطاغوت » فسروها بالصنم أو الشيطان (١) » .

ثم يقول وهو يتحدث عن نتائج هذا التغير فى الفهم والادراك :

« فمن الحق الذى لا مراء فيه انه قد خفى على الناس

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٩ .

معظم تعاليم القرآن ، بل وغابت عنهم روحه السامية وفكرته المركزية ، لمجرد ما غشى هذه المصطلحات الأربعة الأساسية من حجب الجهل ، وذلك من أكبر الأسباب التى قد تطرق لأجلها الوهن والضعف الى عقائدهم وأعمالهم على رغم قبولهم دين الاسلام وكونهم فى عداد المسلمين» (١) .

صلاحية الأمة للأخذ والتلقى والفهم ، ومزية القرآن فى الابانة والوضوح والافادة .

ولا يبعد أن يفهم منه القارىء الذى لم يتعمق فى العلم ، ولم يقو ايمانه بحفظ هذا الكتاب الخالد — بجميع معانى الكلمة — وصيانة هذه الأمة عن الضلال العام ، والجهالة المطبقة المخيمة على الأمة عبر المسافات الزمانية والمكانية ، أن القرآن قد بقى هذه المدة الطويلة ملتبسا على الأمة أو — فى تعبير متحفظ — على أكثر أفرادها ، ومضت على ذلك قرون وأجيال ولم تتبين الأمة حقيقة الكلمات التى يدور عليها هذا الكتاب ، وتقوم عليها تعاليمه ودعوته ، الا فى العصر الأخير حين قيض الله لفهمها ورفع اللثام عنها بعض الكتاب الاسلاميين .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٩ — ١٠ .

وهـــذا الفهم وان بدا أمرا غير ذى خطــر ، ولكنه عميق الجذور بعيد العواقب فى التفكير الاســلامى ، لأنه يشــك فى صلاحية هذه الأمة ومركزها القيادى والدعوى ، وفى فهم هــذه الأمة لهذا الكتاب والعمــل به فى تاريخها الطويــل ، ويقلل من قيمة مآثر المجددين والمصلحين والمجتهدين العلمية والعملية ، فان الكتاب الذى لم يفهم حق الفهم فى أطول مدة وأخصبها عملا وعلما وكفاحا ، يشك فى ابانته ووضــوحه وافادته ، ويشــك فى كل ما يقال عنه ويفسر به فى هذا العصر وبعده ، وذلك يفتح البــاب للتوسع فى تأويله على مصراعيه ــ كما فعلت الباطنية فى مختلف أشكالها ــ ويشجع المحاولات التى ترمى الى تحويل الحــقائق الدينية الى لغز مستعص على الفهم والادراك .

الصلة بين الكلمات والمعــانى :

وقــد يعجز كثير من القراء الكرام الذين لا يتمتعون بنظرة عميقة فى التاريخ ، تاريخ المذاهب والفرق ، عن اساغة هــذا الاجمال ، فنرى من المنــاسب أن نثبت هنا ما قلنــاه عن هــذه «الاستراتيجية» الدقيقة التى استخدمتها الباطنية ، فى الجزء الأول من كتابنا « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام » :

« انهم لاحظوا أن اصول الديانة الاســلامية وعقــائدها

واحكامها ومسائلها ، انما عرضت فى أطر الفاظ وكلمات تدل عليها وتعبر عنها وكان لابد من ذلك عند كل رسالة جديدة ، والله يقول : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لـــهم » (١) وقـــد تعينت معانى هذه الكلمات ومفاهيمها ، وتواتر ذلك عمليا ولفظيا فى الأمة وعرفته الأمة الاســـلامية ودانت به ، فكل من كلمـــات « النبـــــوءة » و « الرســــــالة » و « المـــــــلائكة » و « المعـــــــاد » و « الجنـــــــة » و « النـــــــار » و « الشريعــــة » و « الفـــــــرض » و « الــــــواجب » و « الحــــــلال » و « الحــــرام » و « الصــــــلاة » و « الزكاة » و « الصوم » و « الحج » يؤدى معنى خاصا ، وتفهم منها مفاهيم خاصة لايشك فيها مســـلم ، ولا يختلف فيهـــا اثنان ، وكما أن هذه الحقائق الدينيـــة ـــ التى تعبـــر عنها هـــذه الكلمات ـــ ظلت محفوظة فى الأمة تتوارثها الأجيال ، وتنتقـــل مع الزمان ، كذلك هذه الكلمات ثروة محفوظة لم تعبث بها يد التحـــريف ، وقد أصبح كل منها لازما وملزوما لصاحبه ، فاذا أطلقت كلمة « الصلاة » ـــ مثلا ـــ انتقل الذهن الى هيئة عبادة خاصة ، فيها قيـــام وركوع وسجود وقراءة وتســـليم ، الى غـــير ذلك مما يدخـــل فى أركان « الصلاة » وأجزائها وأوضاعها ، وكذلك اذا أطلقت كلمة «النبوءة»

---

(١) سورة ابراهيم : ٤

أو « المعاد » تعين منهما ذلك المفهوم الاسلامى الذى يفهمه المسلمون ويدينون به .

لقد أدرك « الباطنية » بذكائهم ، ان هذه الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها ، أساس تقوم عليه الحياة الاسلامية ، والهيكل الفكرى والعملى فى حياة المسلمين ، ولهذه الصلة تدين الوحدة الدينية والفكرية التى يمتاز بها المسلمون ، وعن طريق هذه الصلة يتصل المسلمون بماضيهم وبمنابعهم الصافية ، فاذا انقطعت هذه الصلة — بين الكلمات والمعانى — وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ومفهوم معين ، أو تسرب الشك والاختلاف اليها ، أصبحت هذه الأمة فريسة لكل دعوة وفلسفة ، وساغ لكل أحد أن يقول ما يشاء ، ويروج على كثير من العامة وأشباه العامة بل الخاصة ، وعمت الفوضى العقلية والدينية ، وذلك ما يريدون ، ومنه يدخلون »(١) .

المزايا الأساسية للقرآن :

ثم ان هذه الفكرة تخالف الحقيقة العلمية ، والعقيدة الدينية ، وهى أن هذه الأمة لم تتلق الدين فى صورة الكتاب فحسب ،

---

(١) رجال الفكر والدعوة فى الاسلام الجزء الأول ، ص ١٦٦ — ١٦٧ — ١٦٨ الطبعة الثانية . طبع « دار القلم » الكويت .

بل ظلت تنتقل الكلمات والمعانى والمفاهيم من جيــل الى جيل ، وظلت تتوارثها الأجيال ، حتى التطبيق العملى أيضا .. فضلا عن أنه ينافى وصف الله تعالى لهذا الكتاب بالابانة والوضوح فى غير ما موضع من القرآن :

جاء فى مستهل سورة يوسف :

« الر ، تلك آيات الكتاب المبين ، انا أنزلناه قرآنا عربيــا لعلكم تعقلون »(١) .

وفى مطلع سورة الحجر :

« الر ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين »(٢) .

وفى مفتتح سورة النمل :

« طس ، تلك آيات القرآن وكتاب مبين »(٣) .

وفى الآية الأولى من سورة الشعراء :

« طسم ، تلك آيات الكتاب المبين »(٤) .

وتتحدث سورة الشعراء عن صلاحية الابانة والتفهيم التى يفيض بها الوحى ــ الذى نزل به الروح الأمين : جبرئيل ، على قلب النبى صلى الله عليه وسلم ــ فتقول :

« وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الــروح الأمين عــلى

---

(١) سورة يوسف : ١ ــ ٢ (٢) سورة الحجر : ١

(٣) سورة النمل : ١ (٤) سورة الشعراء : ١ ــ ٢

قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين »(١) .

وتبتدىء سورة حم بالكلمات الآتية :

« حم والكتاب المبين »(٢) .

وهل يسوغ لعاقل أن يعتقد أن ذلك الكتاب — الذى نص القرآن مرارا وتكرارا وفى قوة وشدة والحاح ، على ابانته ووضوحه وكونه سهلا سائغا للفهم — عجز عن تفهيم مصطلحاته الأربعة — التى يدور حولها نظامه الاعتقادى والعملى والدعوى — وتقريب معانيها الحقيقية ومفاهيمها الأصلية الى العقول والأذهان ؟(٣) !

وقد نص القرآن فى غير موضع منه على أن آياته محكمة ومفصلة :

« هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب »(٤) .

« واذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ، رأيت

---

(١) سورة الشعراء : ١٩٢ (٢) سورة حم : ١ — ٢

(٣) يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودى نفسه فى تفسير كلمة « المبين » : «انها تعنى أن هذه آيات القرآن الذى يفصح عن مفاهيمه ومدلولاته فى صراحة ووضوح » الجزء الثانى من تفهيم القرآن (أردو) راجع تفسير سورة الحجر .

(٤) سورة آل عمران : ٧

الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت »(1) .

« الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »(2) .

يقول المفسر الشهير الحافظ عماد الدين ابو الفداء اسمعيل ابن كثير (م ٧٧٤ هـ) فى تفسير « محكمات هن أم الكتاب » : « أى بينات واضحات الدلالة ، لاالتباس فيها على أحد » ويسرد فى هذا المعنى قول محمد بن اسحاق بن يسار : « فهن حجة الرب وعصمة العباد ، ودفع الخصوم الباطل ، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعنا عليه »(3) .

ويقول العلامة شهاب الدين السيد محمود بن عبد الله الآلوسى (م١٢٧٠هـ) فى تفسيره المعروف « روح المعانى » لدى الحديث عن « محكمات » : « صفة آيات : أي واضحة المعنى ، ظاهرة الدلالة ، محكمة العبارة ، محفوظة من الاحتمال والاشتباه »(4) .

---

(1) سورة محمد : ٢٠ (2) سورة هود
(3) أنظر تفسير ابن كثير ــ سورة آل عمران .
(4) « روح المعانى » الجزء الأول ، سورة آل عمران

أما كون الآيات القرآنية مفصلة ، فقد جاء النص على ذلك في ١٥ موضعا من القرآن الكريم ، في مختلف الصيغ وأنواع الأساليب(١) .

ان هذه الصفات والنعوت هي الأخرى تنافي الفكرة القائلة بأن العديد من الحقائق القرآنية ظلت خافية على الناس الى مدة طويلة .

ثم ان هذا الأسلوب من التفكير يناقض قوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »(٢) والوعد بالحفظ في موضع الامتنان وتذكير الفضل والاحسان ، يستوجب الفهم والشرح والعمل والتطبيق ، فلا خير في كتاب يبقى ولا يفهم ولا يعمل به وقد قال لرسوله :

« ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه(٣) » .

يقول حكيم الاسلام أحمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي

---

(١) اقرأ الآيات : ٥٨ ، ٩٧ ، ٩٨و١٢٦ من الأنعام . و ٣٢ ، ٥٢ ، ١٧٤ من الأعراف . . و ١١ من التوبة . . . و ٥ من يونس . . ٢٤ و ٢٨ من الروم . . و ٢ من الرعد . . و ١ من هود . . و ٣ ، ٤٤ من فصلت

(٢) سورة الحجر : ٢١

(٣) سورة القيامة : ١٧ — ١٩

(م١١٧٦هـ) فى كتابه القيم « ازالة الخفاء عن خلافة الخلفاء » فى معرض الحديث عن « ان علينا بيانه » :

« يقول الله تبارك وتعالى : ان علينا ابانة القرآن وايضاحه فسنظل نقيض فى كل عصر جماعة كثيرة العدد تقوم بشرح كلماته التى تحتاج الى الايضاح ، وبيان أسباب النزول ، حتى يتحقق الناس مفاهيمها الأصلية ومصاديقها الصحيحة ، الا أن دوره يأتى بعد حفظ القرآن وتبليغه ونشره ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم نفسه هو المفسر للقرآن وشارحه الأول .. وجاء دور تفسير القرآن — فى الواقع العملى — بعد ما تم تدوينه وجمعه فى المصاحف ، وبعد ما عمت تلاوته وقراءته ، وكان سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنه هو رائد هذا العمل(١) » .

اذا فبعد هذا الوعد الالهى المؤكد الصريح المتمثل فى « ان علينا بيانه » لا مساغ للقول بأن الكلمات القرآنية الجذرية ، التى لا يمكن الوصول الى مفاهيم القرآن ومعانيها الحقيقية وأحكامه ومطالبه المرادة ، بدونها ، بقيت قرونا طوالا غير مفهومة ، منطوية على معانيها ، ولا يعنى هذا الاعتقاد الا نقضا للآية الكريمة السالفة الذكر ، فى مفهومها ومعناها ومقتضاها .

---

(١) «ازالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» فى اللغة الفارسية ، ص ٥٢ .

الأمة المسلمة لم تقع فريسة الجهالة المطبقة والضلالة الشاملة فى أى دور من أدوارها :

ان هذا الأسلوب من البحث وهــذا المنهــج من التفكير ، قد يجعلان الانسان يفهم ــ منطقيا ــ أنه قد أتى على هــذه الأمة المسلمة عهد طويل بقيت فيه جاهلة لمصطلحات القرآن الأساسية ومعانيها ومدلولاتها الحقيقية ، التى تتوقف عليهــا صحة تفكيرها وصحة عملها ، الأمر الذى يرمى الأمة بالجهل الصريح والاهمــال الهائل بل وبالضلال المبين أيضا ، على حين ان الكتاب والســنة ودواوين الأحاديث بمجموعها تدل دلالة مبدئيــة على أن هــذه الأمة ــ بالعكس من الأمم الاخرى الســابقة ــ ســوف لا تمنى بالضلال المطبق الشامل فى أى عهد من عهودها ، قد صرح بذلك كبار الأئمة وجهابذة المحدثين .. وقد جاء فى حديث « لا تجتمــع أمتى على ضلالة » يقول المحدث الأندلسى المعروف ــ وأحد كبار نقاد الحديث ــ العلامة أبو محمد على بن حزم (المتوفى ٤٥٦هـ) فى كتابه « الاحكام فى أصول الأحكام » :

« قالوا (المحدثون) فصح أنه لا تجتمع أمة محمد (ص) على غير الحق أبدا لأنه عليه السلام قــد أنذر انه لا يزال منهــم

قائم بالحق أبدا ، وقد روى انه عليه السلام قال : « لا تجتمع أمتى على ضلالة » وهذا وان لم يصح لفظه ولا سنده(١) . فمعناه صحيح بالخبرين المذكورين آنفا »(٢) . « اشارة الى الخبرين اللذين ساقهما فيما قبل هذه السطور ، مرويا أحدهما عن ثوبان ، وثانيهما عن معاوية رضى الله عنهما ، وهما : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » و « لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس » وفى رواية : « وهم على ذلك ») .

ويقول العلامة الحافظ أبو عبد الله شمس الدين ابن قيم الجوزية (م٨٩١هـ) : « فان الأمة ــ ولله الحمد ــ لم تجتمع على ترك العمل بسنة واحدة ، الا سنة ظاهرة النسخ ، معلوم للأمة ناسخها وحينئذ يتعين العمل بالناسخ دون المنسوخ »(٣) .

---

(١) هذا ما يراه العلامة ابن حزم ، أما المحدث الشهير والناقد الكبير العلامة السخاوى ، فيقول : « وبالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة ، (انظر كتابه « المقاصد الحسنة » فصل اللام ألف) .

(٢) « الأحكام فى أصول الأحكام » ج ٤ ، ١٣١ ، الطبعة الأولى ، طبع مطبعة السعادة بمصر .

(٣) « أعلام الموقعين » ج ٢ ، ص ٣٢٠

ويقول الحافظ ابن كثير — وهو يفسر قوله تعالى :
« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين » الخ :

« فانه قد ضمنت لهم العصمة فى اجتماعهم من الخطأ ، تشريفا لهم وتعظيما لنبيهم ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك »(1) .

ويقول شيخ الاسلام تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمة الله عليه (م ٧٢٨هـ) خلال البحث فى « الاجماع » :

« واما اجماع الأمة فهو حق ، لا تجتمع الأمة — والحمد لله — على ضلالة كما وصفها الله بذلك فى الكتاب والسنة ، فقال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر ، كما وصف نبيهم بذلك فى قوله: « الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » وبذلك وصف المؤمنين فى قوله : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف

---

(1) تفسير ابن كثير . ج ٢ ص ٣٩٣ ، طبع « دار الأندلس»

وينهون عن المنكر » فلو قالت الأمة فى الدين بما هو ضلال لكانت لم تأمر بالمعروف فى ذلك ، ولم تنه عن المنكر فيه ، وقال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »(١) .

شهادة العقل السليم :

ولا يمكن للعقل السليم أن يؤمن بأن هذه الأمة — التى أنجبت عددا هائلا من عباقرة العلماء ونوابغ المدونين للعلوم والفنون وعماليق فى الذكاء والفكر ، لا سيما فى القرون التى تلت عهد الرسالة وعصر نزول القرآن — عاشت فى جهل متصل بتلك الحقائق الأساسية التى هى مفتاح فهم القرآن ومحور الدعوة الى الخير . . والأستاذ المودودى نفسه يرفض أن يسلم أن علماء

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ج ١٩ ، ص ١٧٦ — ١٧٧ .

واقرأ للتفصيل والاطلاع على الدلائل الشرعية والعقلية فيما يتصل بصيانة الدين ، البحث القيم للعلامة الامام أبى اسحاق الشاطبى (المتوفى ٧٩٠ هـ) بعنوان « المسألة الثانية عشرة » فى الجزء الثانى من كتابه العظيم « الموافقات فى أصول الشريعة » الذى استهله بما يلى : « ان هذه الشريعة المباركة معصومة كما ان صاحبها صلى الله عليه وسلم معصوم ، وكما كانت أمته فيما أجمعت عليه معصومة » ج ٢ ص ٥٨ الى ٦١ ، ويجدر بالدراسة ما قاله المؤلف بشأن صيانة الدين من ناحية الواقع العملى والتاريخى .

الأمـــــة بأجمعهم قـــد أخطأوا فى فهم نص من نصـــوص القرآن أو الحديث ، وما تبينوا الخطأ الى مدة مـــديدة ، يقـــول الأستاذ الفاضل خلال البحث فى حديث « الأئمة من قريش » :

« هل يجدر بأن يسلم أن علماء الأمـــة بأسرهم قد أخطـــأوا فى فهم نص من النصوص وانهـــم ظلوا رهـــان هـــــذا الخطـــأ قرونا ؟ »(١) .

على حين ان حديث « الأئمة من قريش » لا يتصل بالعقائد ، ولا بضروريات الـــدين ولا بأوليـــاته وقطعيـــــاته ، أما تلـــــك المصطلحات القرآنية الأربعة ، فانها قطب تدور حـــوله رحى الدين وهى مناط الفكر والعمل فى هذه الأمة ، وشتان بينهما .

وقد احتج الأستاذ فى ضـــوء هـــذا المبدأ ــ الذى يقـــرره العقل السليم والمنطق المستقيم ، ويستوجب الاعتراف والتسليم ــ على القاديانية بكلمة « خاتم النبيين » التى بقيت الأمـــة المسـلمة عبر عصورها لا تفهم منهـــا الا معنى واحـــدا ، ليس الا ، وقـــد سرد فى هذا الصدد اقوال ائمة الأمة فى كل عهـــد من عهودها .

---

(١) تفهيمات (بالأردية) الجزء الثالث . ص ١٧٦ . توزيـــع المكتبة المركزية للجماعة الاسلامية . دهلى ــ الهند .

تحليل وتعليق بقلم العالم المصرى والمرشد العام « للاخوان المسلمين » : الأستاذ حسن اسماعيل الهضيبى(1)

يقول المرحوم الأستاذ حسن اسماعيل الهضيبى — الذى عين مرشدا عاما للاخوان المسلمين بعد الامام الشهيد حسن البنا ، باتفاق أعضاء الجماعة ، وقد اتفقت كلمتهم على غزارة علمه وصلاحه واخلاصه وفهمه الدينى ، وعزيمته واستقامته — معلقا على ما أسلفت من كلمة الأستاذ المودودى فى كتابه « المصطلحات الأربعة فى القرآن » فى كتابه « دعاة لا قضاة » الذى صدر حديثا فى القاهرة :

« ان هذا التقرير لا يتفق مع الواقع ، ذلك أنه أيا كانت المعانى التى كانت شائعة فى الجاهلية لتلكم الكلمات ، فان القرآن الكريم قد جاء محددا ما يقصده من كل منها ، معرفا المفهوم المعنى من كل لفظة من الفاظها ، مبينا ذلك غاية البيان ، مجليا المعنى المراد بما لا يدع مجالا للبس أو غموض . وهذا البيان القرآنى قد أغنى عن الرجوع الى أصل تلك الكلمات فى اللغة وما كان لها من معان قبل نزوله ، ولا يستريب مسلم أن بيان القرآن الكريم هو الأحكم والأوضح والاشمل والاجل ، بل هو الذى يتعين الاخذ به والتسليم بمقتضاه . وافق ذلك ما كان قبل نزوله

(1) توفى رحمه الله سنة ١٣٩٣ هـ

أم لا »(١) .

ثم يضيف قائلا — بعد ما استشهد بالآيات التى استخدمت فيها هاتى الكلمات :

« أيصبح — فى الواقع — أنه لما كان العرب قبائل شتى متفرقة ومختلفة ، ولكل منها لهجتها ؛ لا تجمعها رئاسة أو ثقافة أو معتقدات موحدة ، وكانوا أمة أمية ، ندر فيهم من ألم بالقراءة وبالكتابة ، يكسوهم الجهل والانحطاط ، ليس لهم كتاب أو احاطة بعلم أو فن .. لما كانوا كذلك كان مفهوم كلمات « الاله » و « الرب » و « العبادة » و « الدين » شائعا بينهم ، معروفا لدى كل امرىء منهم على حد سواء وعلى صفة معينة محددة .. فلما نزل كتاب الله بالذكر المحفوظ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، مشتملا على البيان الجلى والايضاح الشامل ، يتعبد الناس بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار ، ويجهرون به فى صلوات تقام جماعة فى المساجد وغيرها ، ضاعت تلك المعانى واندثرت ، ولم تعد شائعة بين الناس بمثل ما كانت شائعة بينهم فى الجاهلية . أيصبح ذلك وكتاب الله محفوظ بين المسلمين ولو قرأ أيهم الفاتحة أو قل هو الله أحد ، أو المعوذتين ، أو سمعها ، لاطلع وعرف وأبصر ما لم يكن يعرف الجاهلى

(١) « دعاة لا قضاة » ص ١٩ — ٢٠

عنه شيئا »(١) .

« اما واذ جاء القول : (ان الذين ولدوا فى المجتمع الاسلامى ونشأوا فيه لم يكن قد بقى لهم من معانى كلمات « الاله » و « الرب » و « العبادة » و « الدين » ما كان شائعا فى المجتمع الجاهل قبل نزول القرآن » بغير برهان يقوم حجة على صدقه وصحته ـ فانه يكون مجرد قول لا حجة ، ولا يجوز اتباعه ولا يصح ان تبنى عليه أحكام ، وما سبق أن اجتزأناه من كتاب الله من آيات ، شامل على معانى الألوهية والربوبية ، والمفسرون ما اقتصروا قط على تفسير كلمة « الرب » بمعنى دون سائر المعانى التى تشملها ، وانما هم فسروا الكلمة فى كل موضع على المعنى الذى يدل عليه السياق »(٢) .

واعقب المؤلف بكثير من الآيات القرآنية تجلى لكلمة

---

(١) نفس المصدر ، ص : ٢٥ .
(٢) نفس المصدر ، ص : ٢٥ .
والنظرة على كتب التفسير والمعاجم ودواوين اللغة التى وضعت فى أدوار مختلفة ، وعلى مؤلفات رجال العلم والبحث ومواعظ رجال الاصلاح والدعوة والعلماء الربانيين وكلماتهم وما دار فى مجلسهم من حديث وحوار ـ تلك التى قيدت الى حد كبير فى كلماتها الأصيلة ـ تدل دلالة واضحة على أن تلك الكلمات قد فهمت على حقيقتها وعرضت على صحة معانيها عبر العهود ، الا أن القوم لم يقتصروا على معنى واحد ولم يحددوها فى اطاره كما فعل بعض المتأخرين .

« الرب » معانيها القرآنية المختلفة كما سرد عددا كبيرا من الآيات يلقى الضوء القوى على كلمتى « العبادة » و « الدين » ثم يقول بعد ما سرد قول الأستاذ المودودى الذى جاء فيه :

« لما نزل القرآن فى العرب وعرض على الناطقين بالضاد ، كان حينئذ يعرف كل امرىء منهم ما معنى « الاله » وما المراد بـ « الرب » لأن كلمتى الاله والرب كانتا مستعملتين فى كلامهم منذ ذى قبل ، وكانوا يحيطون علما بجميع المعانى التى تطلقان عليها ، ومن ثم اذا قيل لهم : لااله الا الله ولا رب سواه ولا شريك له فى الوهيته وربوبيته ، ادركوا مادعوا اليه تماما ، وتبين لهم من غير ما لبس ولا ابهام أى شىء هو الذى قد نفاه القائل ، ومنع غير الله أن يوصف به ، وأى شىء قد خصه وأخلصه لله تعالى » :

« فنقول — بعون الله — : انه ان كان المقصود بهذا القول القطع بأن كل فرد ممن كان بنجد والحجاز وغيرهما وقت بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام على وجه التحديد والتعيين . قد أدرك بغير ما لبس ولا ابهام ما دعى اليه ، وكان على علم كامل شامل بمعنى كلمتى « الاله » و « الرب » وحقيقة التوحيد ، وبالجملة : المفهوم الكامل الشامل بشهادة « لااله الا الله » ان كان هذا هو المقصود فانه يكون قولا فى حاجة لاقامة البرهان على

صحته ولا يكفى للتدليل على صحة هذه الدعوى الادعاء بشـــيوع معانى كلمتى « الاله » و « الرب » بين العرب الناطقين بالضاد .

أولا : لأن الشيوع مهما بلغ واشتد ، معناه معرفة الكثرة الغالبة بالأمر ، ولا يرقى الى حد القطع والتيقن من حقيقة عـــلم كل فرد على وجه التحديد والتعيين ، فمن ذا الذى أحصاهم عددا ، وتأكد من حقيقة أمر كل منهم فـــردا فردا ، ليجـــزم باســـتحالة أن يكون بينهم من أخطأ الفهم أو لم يصله العلم .. ؟

ثانيا : ان الذين كانوا بنجد والحجاز وغيرهما . لم يـــكونوا كلهم من العرب الخلص العالمين باللغة العربية كأهلها ، بل كان فيهم بيقين كثير من المستعربين والأرقاء المستجلبين من نواح شتى وأجناس مختلفة ، وكان فيهم أيضا الأحرار الأجانب الاعجميـــو اللسان ، فلا يصدق فى حقهم القول بالفهم كفهم الناطق بالضاد ، ولقد حفظ لنا التاريخ أسماء كثيرين من صحابة رسول الله صـــلى الله عليه وسلم من فارسيين وروميين وأحباش ، وأشار القرآن الكريم الى وجود هؤلاء الأجانب : « لسان الذى يلحدون اليـــه أعجمى وهذا لسان عربى مبين »(١) .

التصوير القاتم للعالم الاسلامى والتاريخ الاسلامى :

وحينما يقول الأستاذ المودودى فى صراحة ودون تحفظ :

---

(١) نفس المصدر ، ص : ٣٠ .

« ولكنه فى القرون التى تلت ذلك العصر الزاهر جعلت تتبدل المعانى الأصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات ، تلك المعانى التى كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن » و « أنه قد خفى على الناس معظم تعاليم القرآن ، بل قد غابت عنهم روحه السامية وفكرته المركزية لمجرد ما غشى هذه المصطلحات الأربعة الأساسية من حجب الجهل » .

فطبعا يبدو له تاريخ هذه الأمة الماضى كله سلسلة متصلة الحلقات من الجهل والانحطاط ، وتبدو له القـــرون الوســـــطى الاسلامية ــ وقد اعترف بمآثر عدد من المجددين « الجـــانبيين » ظهروا خلال هذه الفترة ــ عقيمة مجدبة ، نعم .. قد تلمح ــ فى هذا الظلام المخيم على العالم الاسلامى ــ بارقة محاولات الاصلاح والتجديد فى ناحية من نواحى العالم الاسلامى « كلما أضاء لهـــم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا » .

ان هذا الأسلوب من التفكير يجعله ــ منطقيا وطبيعيـــا ــ يصور العالم الاسلامى فيما بعد عهد الصحابة والتابعين(١) تصويرا يشكك الشباب المسلم المثقف ، الذكى الرقيق الشعور ــ الذى لم تتسن له فرصـــــة لدراســـــة تاريخ الاســـــلام العلمى والفـــكرى

---

(١) على أن بعض كتاباته تشف عن أن عهد الصحابة والتابعين أيضا لم يكن مثاليا بالتمام

والاصلاحى والتجديدى دراسة عميقة واسعة — فى خلود الرسالة الاسلامية ، وأبدية تعاليم الاسلام ، وصلاحية الاسلام الانتاجية ، وقدرته على صنع « الرجال » وتربية العباقرة والأبطال ، وأن شجرة الاسلام لا تعرف الذوى والذبول ، وأنها دائمة الحياة والشباب ، والاخضرار والاثمار ، تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، وأن خلية الاسلام تعسل فى كل حين وآن ، وفى كل زمان ومكان . . فتتزعزع ثقته بمصير الاسلام ويقع — الى حد ما — فريسة « مركب النقص » واليأس ، ويخيل اليه أن تربة الاسلام لا تصلح للانبات مهما هطلت عليها الأمطار ، وصب « الفلاحون » عليها جهدهم وسقوها بعرق جبينهم آناء الليل والنهار .

قد يشعر القارىء بشىء من القسوة فى هذا الحكم ، ويقول لقد بنى كل المصلحين والمسلمين فى الاسلام عملهم الاصلاحى على نقد المجتمع الاسلامى وعدم ارتياحهم الى الوضع السائد ، كذلك الغزالى فى كتابه « الاحياء » وابن تيمية فى كتابه « الرد على البكرى » و « الرد على الاخنائى » والشيخ عبد القادر الجيلى فى خطبه ومواعظه المجلجلة ، والشيخ عبد الرحيم الدهلوى ، وحفيده الشيخ اسماعيل الشهيد فى كتاباتهما ، ولكن لا يعزبن عن البال أن نقدهم كان موجها الى عصرهم وبيئتهم فحسب ،

لم يكن شاملا للتاريخ الاسلامى ، ولا للامة الاسلامية فى جميع أدوارها وأمصارها وشتان ما بين الأسلوبين .

وكل من صدر من قلمه ما يشعر بجدب التاريخ الاسلامى ، وعقم الأمة المحمدية ، وشيوع الظلام ، وانتشار الانحراف والضلال فى عالم الاسلام ، يحمل كلامه على التسرع فى الحكم ، ونقص الاطلاع على تاريخ الاصلاح والتجديد ، ولا يستثنى المؤلف نفسه عن التورط فى هذا الخطأ فى كتاباته المبكرة التى صدرت عنه قبل النضج الفكرى ، والدراسة الاختصاصية الواسعة(١) ، وقد تفطن لهذا فى كتابه الشهير « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » وقد جاء تحت عنوان « انكار الدين على المسلمين وأهابته بهم » :

« ولا يعزبن عن البال أن الدين لم يزل طول هذه المدة حيا محفوظا من التحريف والتبديل ، مهيبا للمسلمين ، ناعيا عليهم انحرافهم عن طريقه ، ولم يزل مناره عاليا ، وضوؤه مشرقا « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » ولم يزل

---

(١) كما جاء فى كتابه الشهير الواسع الانتشار فى شبه القارة الهندية « سيرة سيد أحمد شهيد » بعنوان عصر السيد الامام (٥٥ — ٥٨) وليعلم أن هذا الكتاب هو باكورة مؤلفاته ، قد بدأ بتأليفه وكتب هذا الفصل ، وهو فى الثانية والعشرين من عمره .

الكتاب والسنة يبعثان فى نفوس القراء ثورة على الشرك والبدع ، وعلى الجهالة والضلالة ، وثورة على أخلاق الجاهلية وعوائدها ، وثورة على ترف المترفين واستبداد الملوك ، ولم يزل ينهض بتأثيرهما فى كل دور من أدوار التاريخ الاسلامى ، وفى كل ناحية من نواحى العالم الاسلامى ، رجال يقومون فى هذه الأمة على طريقة الأنبياء ، يجددون لها أمر دينها الخ(١) .

وقال تحت عنوان « نتاج القرون المنحطة » :

« وظلت خلية الاسلام تعسل فى أدوار الانحطاط أيضا ، ويظهر من الملوك والفاتحين أفراد هم أنموذج الصحابة والسلف الصالح فى سيرتهم وأخلاقهم ، فى دينهم وتقواهم ، وينهض فى العالم الاسلامى رجال يتجمل التاريخ بذكرهم .

وكان المسلمون رغم انحرافهم عن سيرتهم الأولى وطريقهم المثالى اقرب الى طريق الأنبياء ، وأطوع لله من الأمم الجاهلية المعاصرة لهم .

وكان وجودهم ودولتهم أكبر عائق للجاهلية فى انتشارها وازدهارها ، وكانوا رغم نقائصهم أكبر قوة فى العالم تهابها

---

(١)ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الطبعة العاشرة ، دار الانصار ، ص ١٥١ ، ١٥٢

الدول وتحسب لها كل حساب »(١) .

ولازالة هذا الانطباع المستعجل الف كتابه الكبير «رجال الفكر والدعوة فى الاسلام »(٢) الذى استعرض فيه الجهود الاصلاحية التجديدية فى تاريخ الاسلام الدينى والفكرى والاجتماعى ، وذكر كبار قادتها وزعمائها ، من مختلف الطبقات الاسلامية ، والعصور التاريخية ، واثبت فى مقدمته أن حركة الاصلاح والتجديد تكاد تكون متصلة الحلقات لا تتخللها فترة طويلة .

وعندما يتحدث الأستاذ فى مثل هذا الموضوع ، يأخذه الحماس فيرخى العنان لقلمه ، فيصول ويجول ، ويأخذ أسلوبه الكتابى طابعا آخر ، عاطفيا خطابيا ، غير الطابع العلمى الهادىء المعهود المتبع لديه ، ولندعه يؤكد صدق ما نقول :

« ان روح التحقيق والاجتهاد . وحرية الفكر والرأى ، وحرية نشدان الحق ، التى خلقها النبى صلى الله عليه وسلم فى أتباعه ، ظلت تعمل عملها بكل قوة زهاء ثلاثة قرون ، ثم بدأ استبداد الأمراء والحكام ، والعلماء والمشايخ يصيب منها : ثم انتزع من العقول المفكرة حقها فى التفكير ، ومن العيون المبصرة

---

(١) أيضا ص ١٥٧ .

(٢) الكتاب فى ثلاثة أجزاء فى « أردو » ظهر لهما جزءان بالعربية تتبعها أجزاء أخرى .

حقها فى البصارة ، ومن الألسن الناطقة حقها فى النطق ، وصار المسلمون يدربون فعلا على الرق والعبودية فى كل مكان : فى مجالس الأمراء ، وفى المدارس وفى الزوايا ، وسيطرت عليهم عبودية العقل والقلب ، وعبودية الجسم والروح ، وأنشأ فيهم رجال الحكم نفسية العبودية بحملهم على الركوع والسجود لهم وجرعهم رجال المدارس كأسا مسمومة من تقديس «الأكابر» و « العظماء » مع تقديس الله ، ومسخ رجال الزوايا طريقة السنة للبيعة ووضعوا فى أعناقهم غلا من العبودية « المقدسة » لم يخترع الانسان لانسان آخر من ذى قبل غلا أشد وأثقل منه .. واذا بدأ الناس يتطامنون برؤوسهم الى الأرض لغير الله ، واذا جعلوا يضعون احدى يديهم فوق الأخرى أمام غير الله كالصلاة ، واذا أصبح النظر الى الانسان يعتبر اساءة أدب ، واذا بدأت أيدى البشر وأرجله تقبل ، واذا أصبح الانسان الها للانسان ومالكه ورازقه ، واذا عاد الانسان مستبدا « بالأمر » و « النهى » ، واعتبر غنيا عن الاستناد الى الكتاب والسنة ، واعتبر معصوما من الخطايا وبريئا من العيب والنقيصة ، واذا أضحى الأمر والرأى البشرى يعد واجب الامتثال والاطاعة كأمر الله تماما — فى الواقع العملى وان لم يكن فى الواقع الاعتقادى — فتأكد أن ذلك يعنى التولى عن الدعوة المتمثلة فى « ألا نعبد الا الله ولا نشرك

به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » ولا يعود بعد ذلك أمل فى تقدم علمى وأخلاقى وروحانى ، بل يؤدى ذلك حتميا الى الزوال والانحطاط »(١) .

وكذلك يقول فى صريح العبارة فى كتابه « التجديد واحياء الدين » — وهو يستعرض محاولات الاصلاح والتجديد فى تاريخ الاسلام ومآثر أولئك الأعلام الذين حملوا لواءهما والخدمات المخلصة والجهود المشكورة التى قاموا بها فى هذا السبيل — :

« نظرة عجلى على التاريخ تدل على أنه لم يظهر مجدد — فى معنى الكلمة — بعد ، وكاد عمر بن عبد العزيز أن يعتلى هذا المنصب ، ولكنه لم يتمكن منه ، وكل من ظهر من بعده من رجال التجديد ، اقتصروا على العمل فى ناحية أو نواح خاصة ، ولا يزال منصب المجدد الكامل شاغرا »(٢) .

تبشير الأحاديث الصحيحة باستمرار ظهور القائمين بالحق وبتواصل الجهود الرامية الى اعلاء الحق ورفع مناره عاليا :

ان هذا الأسلوب من التفكير ، وهذه النتيجة النابعة من

---

(١) « تنهيمات » ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨ (فى الأردية) توزيع المكتبة المركزية للجماعة الاسلامية بالهند .
(٢) « التجديد واحياء الدين » (باللغة الأردية) ص ٣١ ، توزيع مكتبة الجماعة الاسلامية ، دار الاسلام « بتان كوت » بنجاب .

دراسة التاريخ يتعارضان مع مفهوم تلك الأحاديث الصحيحة الصريحة التى تنبىء بأن الفرصة التى أكرمت بها هذه الأمة للعمل فى هذه الدنيا ، سوف لا تخلو لمحة من لمحاتها كليا من القائمين بالحق ، والمجاهدين فى سبيله :

جاء فى صحيحى البخارى ومسلم :

« لا يزال ناس من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون »(١) .

وجاء فى جامع الترمذى :

« لا تزال طائفة من أمتى منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة »(٢) .

وقد جاء فى رواية ابن ماجة أوضح وأصرح :

« لا تزال طائفة من أمتى قوامة على أمر الله ، لايضرها من خالفها »(٣) .

وجاء فى رواية أخرى فى جامع الترمذى :

« مثل أمتى مثل المطر لا يدرى آخره خير أم أوله »(٤) .

وفى رواية مستدرك الحاكم :

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب المناقب
(٢) جامع الترمذى ، كتاب الفتن ، باب ما جاء فى الشام .
(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن .
(٤) جامع الترمذى .

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة »(١) .

اتصال محاولات الاصلاح والتجديد فى التاريخ الاسلامى :

ثم ان دراسة التاريخ الأمينة الواسعة العميقة ـ التى لم تقتصر على كتب التاريخ « التقليدى » الاصطلاحى ، وعلى المؤلفات والمطبوعات المتداولة ـ تنفى هذه الفكرة وترفضها ، وتؤكد ان محاولات الاصلاح والتجديد ، ومحاربة الجاهلية والظلام، ومقاومة الحركات الهدامة والتيار المنحرف والفتن العمياء ، والوقوف فى وجه الهجمات الخارجية والداخلية على الاسلام ، وتحدى القوى المتآمرة ضد الاسلام ، ومجابهة الغواية العقيدية والفكرية والشذوذ العلمى والأخلاقى ، وعملية ازاحة اللثام عن وجه الاسلام الحقيقى ونفض الغبار عن لجينه الصافى ، وعرض تعاليم الاسلام فى ثوب قشيب ولباس جديد كاملة غير منقوصة خالصة غير مخدوشة .. متصلة ومستمرة فى تاريخ الاسلام دون انقطاع أو تخلل فترة قصيرة . فاذا نهض هناك دارس لتاريخ الاسلام والمسلمين ، صبور على المطالعة ، واسع الأفق ، دقيق الملاحظة ، بعيد الهمة ، تخصص لهذا الموضوع ، وادعى ـ ولديه الشعور الكافى بالمسئولية ـ بأن حلقات هذه السلسلة

---

(١) مستدرك الحاكم .

الذهبية كلها متصلة بعضها ببعض ، ولم تنقطع عنها حلقة ،
فلن يجوز أن نرميه بالتطرف في احسان الظن ، وبمحاولة تخدير
الأمة فكريا ، لأن الذنب ليس على التاريخ ، وانما الذنب على
منهاج التأليف وكتابة التاريخ(١) ، ولأن عدم وجود الوثائق التاريخية
منسقة فى موضوع ، لا يدل من قريب أو بعيد على عدم وجود
الوقائع والمواد والشهادات والدلائل التاريخية أصلا ، وتلك هى
تجربة متكررة مطردة فى التاريخ العلمى يمر بها مرة بعد أخرى كل
من يعنى بدراسة التاريخ ، أو يتخصص فى هذا الموضوع ، أو
ينشغل به ، واذا صرفنا النظر عن التاريخ ومنطقه ولغته وأسلوبه،
فان كلمة شيخ الاسلام ابن تيمية الحكيمة « عدم العلم لايستلزم
عدم الوجود » تعبر عن حقيقة علمية وتسلط الضوء على الطريق .
فان كان هناك عالم لم يتسن له الاطلاع على اتصال محاولات
الاصلاح والتجديد ، ولم تدعه أوضاعه وملابساته ومسئولياته
الخاصة ، وتكوينه العقلي والنفسى أن يدرس هذا الموضوع دراسة
اختصاص ، فان ذلك لا يعنى أن هذه المحاولات لم تتحقق أصلا .

---

(١) وكتاب «رجال الفكر والدعوة فى الاسلام» (الذى صدرت منه ثلاثة أجزاء فى أردو ، وجزآن بالعربية) لكاتب هذه السطور محاولة متواضعة فى هذا الاتجاه وستتضح الحقيقة جلية واضحة عندما تتم هذه السلسلة باذن الله .

الفعل النفسى لأسلوب التفكير السلبى :

والتشكيك فى صلاحية الأمة المسلمة للانجاب والانتاج

وقدرة شجرة الاسلام الطيبة ــ التى هى مصداق « تؤتى أكلها كل حين باذن ربها » على الاثمار ، وغض البصر عن كل ما تحقق عبر تاريخ الاسلام والمسلمين الطويل من مآثر وجهود ومحاولات مستمرة فى مجال الاصلاح والتجديد وتغيير الأحوال ، واعادة الأمور الى نصابها ، أو التقليل من شأنه ، والنظر الى التاريخ الاسلامى بالمنظار الأسود .. ان هذا الأسلوب (Technique) أو الخطة « الاستراتيجية » قد استخدمها أولئك الذين أبوا الا أن يبنوا بناءهم على أنقاض التاريخ الاسلامى والفكر الاسلامى ، والذين اعتقدوا أن الناس لا يقدرون ما يقومون به من « تحقيق واجتهاد » ولا يتهيأ الجو لحركتهم ودعوتهم ما لم يثيروا الشبهات فى الأذهان حول هذا التراث التاريخى الهائل ، وما لم يرسخوا فيها ضآلته وتفاهته وعدم غنائه .. ويمكن أن نضرب فى ذلك مثلا بمؤسسى فرق وحركات عديدة ، الا أننا لا نؤمن أبدا بأن ما صدر من قلم الأستاذ المودودى فى هذا الموضوع كان استخداما لهذا الأسلوب أو الخطة الاستراتيجية ، لكن مهما كان ذلك عن خلوص نية وحسن طوية ، فان نتيجته السلبية الطبيعية لابد أن تتحقق ، وذلك ما يقتضيه المنطق السليم وطبائع الأشياء وقانون الأسباب والمسببات فى الكون .

ومن ثم فان الذين يقتصرون على دراســـة كتابات الأســـتاذ المودودى ولم يفهموا الاسلام والدعوة الاسلامية وتعاليم الاسلام والتاريخ الاسلامى ، الا من خلال كتاباته ومقـــالاته ومؤلفاته قـــد بلغ بهم اليــأس من تاريخ الاســـلام وماضى المســـلمين ومآثرهم العملية والفكرية فيما بعد القرون الثلاثة الأولى ، حتى تضـــاءلت أمامهم الشخصيات الاسلامية العملاقة ، وقلت قيمة الجهــود التى بذلت فى سبيل النهوض بالاسلام والمسلمين وإدالة هذا الدين من الجاهلية فى الماضى ، وقيمة المآثر العلمية التى تحلى بهـــا تاريخ الاسلام الفكرى والعلمى وازدانت بها المكتبة العالمية ، وآمن كثير منهم ــ وصرح به بعضهم ــ أن فكرة الاسلام المنسقة أو التصور الاسلامـــى الكامل لم يعرض الا فى هذا الزمن الأخير عن طريق دعـــوة « الجماعة الاسلاميـــة » فى شبـــه القارة الهندية وبقلم مؤسسها فى الثلاثينات من القرن العشرين .

الاقتصار على حاكمية « الاله » و « الرب » :

ومحور المصـــطلحات القرآنية الأربعة الأساسيـــة عند الأستاذ المودودى وفكرتها المركزية الأساسية هى « حاكمية الاله والرب » أما « الدين » و « العبادة » فهما ــ فيما يراه ــ طريقان يؤديان اليها ، يقول ــ وهو يشرح مصطلح « الاله » :

« فخلاصة القول أن أصل الألوهية وجوهرها هو الســـلطة

سواء أكان يعتقدها الناس من حيث أن حكمها على هذا العالم حكم مهيمن على قوانين الطبيعة ، أو من حيث أن الانسان فى حياته الدنيا مطيع لأمرها وتابع لارشادها ، وأن أمرها فى حد ذاته واجب الطاعة والاذعان ، وهذا هو تصور السلطة الذى يجعله القرآن الكريم أساسا لما يأتى به من البراهين والحجج على انكار الوهية غير الله واثبات الألوهية لله تعالى وحده »(١) .

ويقول بعد ما يقدم آيات قرآنية كثيرة كدليل على دعواه :

« ففى جميع هذه الآيات من أولها الى آخرها لا تجد الا فكرة رئيسية واحدة ، الا وهى أن كلا من الألوهية والسلطة تستلزم الأخرى ، وأنه لا فرق بينهما من حيث المعنى والروح ، فالذى لا سلطة له ، لا يمكن أن يكون الها ، ولا ينبغى أن يتخذ الها ، وأما من يملك السلطة فهو الذى يجوز أن يكون الها ، وهو وحده ينبغى أن يتخذ الها ، ذلك بأن جميع حاجات المرء التى تتعلق بالاله أو التى يضطر المرء لأجلها أن يتخذ أحدا الها له ، لا يمكن قضاء شىء منها من دون وجود السلطة . ولذلك لا معنى لألوهية من لا سلطة له ، فان ذلك أيضا مخالف للحقيقة ، ومن النفخ فى الرماد أن يرجع اليه المرء ويرجو منه شيئا »(٢) .

---

(١) « المصطلحات الأربعة فى القرآن » ص ٢٣.
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨ — ٢٩.

ويقول فى سياق الشرح « للرب » و « الربوبية » :

« فبقراءة هـذه الآيات بالترتيب الذى سردناها به ، يتبين للقارىء أن القرآن يجعل « الربوبية » مترادفة مع الحاكمية والملكية (Sovereignty) »(١) .

انه يصرح بأن حقيقة الرب هى السلطة العليا ، والعبـادة والعبودية عبارة عن طاعة هذه السلطة وامتثال أمرها والاذعان التام لها ، والنبى هو النائب والممثل عن هذا السلطان الأعلى ، ويجب أن يطيعه الناس بوصفه هذا وحده ، والبشر كرعية مالك الملك ، الذين يجب عليهم أن يخلصوا اله العبادة والعبودية والخضوع والاذعان . يقول فى صميم الأسلوب السياسى فى معرض التفسير لوصية سيدنا عيسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ المتمثلة فى هذه الآية « ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » من سورة آل عمران :

« يظهر من هذا أن دعوة عيسى عليه الصلاة والسلام كانت تعتمد على ثلاثة أصول ، مثلها مثل دعوة الأنبياء طرا .

الأول : التسليم بأن الله وحده السلطة العليا التى يختار المرء سبيل « العبدية » أمامها ، ويقوم على طاعتها كل النظام الاجتماعى والأخلاقى .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٩٣ .

الثانى : طاعة أحكام النبى بوصـــفه نائبا ممثــلا عن هذا السـلطان الأعلى .

الثالث : أن القانون الذى يضـــع حـــدود وقيود التحــريم والتحليل هو قانون الله فحسب ، أما قوانين الآخرين المفروضـــة فرضا ، فباطلة مردودة .

فليس من فرق اذن ــ ولو قيد شـعرة ــ بين مهمة ودعـــوة سيدنا عيسى وسيدنا موسى وسيدنا محمد وغيرهم من الأنبياء عليهم أجمعين السلام ، ويخطىء من يقر لكل واحد منهم بمهمة ودعوة مختلفة باختلاف شخصه ، ويفرق بينهم فى الغرض والنوع .

ان من يأمـــره مالك الملك بالذهاب الى رعيتـــه لدعوتهم لا يمكن أن يكون الغرض من مجيئه شيئا آخر ســـوى منعهم من العصيان والتحرر والاستقلال المطلق وكفهـــم عن الشرك (يعنى أن يشركوا آخرين مع مالك الملك فى السلطة العليا بأى شكل من الأشكال) ودعوتهم الى الاذعان التام والعبودية الخالصة والطاعة والعبادة للمالك الأصلى »(١) .

---

(١) « تفهيم القرآن » الجزء الأول (تعريب أحمـــد ادريس) ، ص : ٢١٧ ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٨ هـ ــ ١٩٧٨ م ، توزيع : دار القلم ــ الكويت .

ويقرر فى معرض الحديث عن السلطة والحاكمية واتحادهما أن اعتقاد امر كائن من دون الله واجب الاطاعة ، والشرك مع الله ، شيء واحد لا فرق بينما ، يقول :

« والحكم والسلطة لا يقبل شيء منهما التجزئة والتقسيم البتة ، فالذى يعتقد أن أمر كائن ما من دون الله مما يجب اطاعته والاذعان له بغير سلطان من عند الله ، فانه يأتى من الشرك بمثل ما يأتى به الذى يدعو غير الله ويسأله ، وكذلك الذى يدعى أنه مالك الملك والمسيطر القاهر ، والحاكم المطلق بالمعانى السياسية ، فان دعواه هذه كدعوى الألوهية ممن ينادى بالناس « انى وليكم وكفيلكم وحاميكم وناصركم » ويريد بكل ذلك المعانى الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية ، الم تر أنه بينما جاء فى القرآن أن الله تعالى لا شريك له فى الخلق وتقدير الأشياء وتدبير نظام العالم ، جاء معه أن الله له الحكم وله الملك ليس له شريك فى الملك ، مما يدل دلالة واضحة على أن الألوهية تشتمل على معانى الحكم والملك أيضا ، وأنه مما يستلزمه توحيد الاله الا يشرك بالله تعالى فى هذه المعانى كذلك »(١) .

(١) المصطلحات الأربعة فى القرآن ، ص ٣١ — ٣٢ .

التصريحات المماثلة لدى سيد قطب :

وقد أعجب الكاتب الاسلامى الكبير الأستاذ سيد قطب الشهيد – وهو صديق المؤلف العزيز – اعجابا شديدا بكتاب الأستاذ المودودى « المصطلحات الأبعة فى القرآن » ووافقه كل الموافقة فى الآراء والأفكار التى يتضمنها ، وقد جعل «الحاكمية» أخص خصائص الألوهية ، وكتاباته تقلل من شناعة عبادة الأصنام والأوثان وعبادة غير الله فى الجاهلية ، لأنه يعتبرها صورة ساذجة بدائية للجاهلية الأولى . يقول فى كتابه الشهير « معالم فى الطريق » :

« هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله فى الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية .. وهى الحاكمية .. انها تسند الحاكمية الى البشر ، فتجعل بعضهم لبعض أربابا ، لا فى الصورة البدائية الساذجة التى عرفتها الجاهلية الأولى ، ولكن فى صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم ، والشرائع والقوانين ، والأنظمة والأوضاع ، بمعزل عن منهج الله ، وفيما لم يأذن به الله .. »(١) .

---

(١) « معالم فى الطريق ، ص : ٩ . طبع وتوزيع : دار دمشق .

انه يعبر عن الأخذ بالقـوانين الموضـوعة على يد البشر ، والخضوع لحكم البشر ، وقبول التشريع غير الالهى،بـ «العبادة»، يقول فى نفس الكتاب فيما بعد هذه السطور المذكورة أعلاه :

« فالناس فى كل نظام غير النظام الاسلامى يعبد بعضهم بعضا — فى صورة من الصور — وفى المنهج الاسلامى وحده يتحرر الناس جميعا من عبادة بعضهم لبعض ، بعبادة الله وحده ، والتلقى من الله وحده ، والخضوع لله وحده »(١) .

ويقول وهو يتحدث عن العرب الذين خاطبهم القرآن مباشرة:

« كانوا يعرفون أن الألوهية تعنى الحاكمية العليا . وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وافراد الله — سبحانه — بها ، معناه نزع السلطان الذى يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام ، ورده كله الى الله . . »(٢) .

ويقول فى صراحة أكثر وعبارة أوضح :

« كانوا يعلمون أن « لااله الا الله » ثورة على السلطان الأرضى الذى يغتصب أولى خصائص الألوهية ، وثورة على

---

(١) نفس المصدر . ص ٩ — ١٠ .
(٢) ص : ٢٨ .

الأوضاع التى تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب ، وخروج على السلطات التى تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله .. »(١) .

ويتناول كلمة « لااله الا الله » بالشرح والايضاح ، فيقول :

« لااله الا الله ــ كما يدركها العربى العارف بمدلولات لغته ــ : لا حاكمية الا لله ، ولا شريعة الا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله . »(٢) .

ولا يفهم هو من « لااله الا الله » الا رد الحاكمية فى كل الامور الى الله وافراده بهذه الحاكمية .. يقول فى موضع من هذا الكتاب ــ وهو يوصى أصحاب الدعوة الاسلامية بأن يعرفوا أولئك الذين يدعون أنفسهم مسلمين أو تشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون ، بالاسلام الحقيقى ــ :

يجب أن يعلموهم ان الاسلام هو ــ أولا ــ اقرار عقيدة « لااله الا الله » بمدلولها الحقيقى ، وهو رد الحاكمية لله فى أمرهم كله ، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم »(٣) .

(١) ص ٢٨
(٢) نفس المصدر : ٣١ .
(٣) نفس المصدر ص : ٤٦ .

ويقول فى موضع آخر :

« ان اعلان ربوبية الله وحده للعالمين ، معناها : الثورة الشاملة على حاكمية البشر فى كل صورها واشكالها وانظمتها وأوضاعها ، والتمرد الكامل على كل وضع فى أرجاء الأرض ، الحكم فيه للبشر فى صورة من الصور .. أو بتعبير آخر مرادف : الألوهية فيه للبشر فى صورة من الصور »(١) .

ومن يجعل « الحاكمية » أخص خصائص « الألوهية » وفكرتها المركزية ، فانه يعتبر — طبيعيا — التحاكم الى قانون من القوانين البشرية ، فى أى شأن من شؤون الحياة ، مخالفة للدين، واشراكا فى الحاكمية — الذى يرادف عند هؤلاء السادة الاشراك فى الألوهية أو الربوبية .

ويقول سيد قطب الشهيد — رحمه الله — فى كتابه « فى ظلال القرآن » بمناسبة الكلام على الآية « ذلك الدين القيم » من سورة يوسف :

« وهذا وحده هو الدين القيم ، فلا دين — اذن — لله ما لم تكن دينونة الناس لله وحده ، وما يكن الحكم لله وحده ، ولا عبادة لله اذا دان الناس لغير الله فى شأن واحد من شؤون

---

(١) المصدر السابق ص : ٨١ .

الحياة ، فتوحيد الألوهية يقتضى توحيد الربوبية ، والربوبية تتمثل في أن يكون الحكم لله ، أو أن تكون العبادة لله ، فهما مترادفان أو متلازمان ، والعبادة التى يعتبر بها الناس مسلمين أو غير مسلمين ، هى الدينونة والخضوع والاتباع لحكم الله دون سواه » (١) .

ويستنتج من ذلك فى السطور الآتية قائلا :

« فهذا الاعتبار يعد من المعلوم من الدين بالضرورة ، من دان لغير الله ، وحكم فى أى أمر من أمور حياته غير الله فليس من المسلمين ، وليس فى هذا الدين ، ومن أفرد الله سبحانه بالحاكمية ورفض الدينونة لغيره من خلائقه ، فهو من المسلمين وفى هذا الدين » (٢) .

ويقول فى عبارة صريحة لا تقبل تأويلا ولا تدع مجالا للنقاش — وهو يتحدث عن الهدف الأساسى الجذرى الذى استهدفته الدعوة النبوية على مدار التاريخ البشرى : —

« ولم يكن الناس — فيما عدا أفرادا معدودة فى فترات قصيرة — ينكرون مبدأ الألوهية ويجحدون وجود الله البتة ، انما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق ، أو يشركون مع

---

(١) (٢) « فى ظلال القرآن » الجزء ١٢ . ص ٢٠٠ .

الله آلهة أخرى ... اما فى صورة الاعتقاد والعبادة ، واما فى صورة الحاكمية والاتباع ، وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله » (١) .

تفنيد مغالاة والرد عليها :

يبدو أنه ظهرت فى مصر فئة تأثرت بهذه الكتابات وتطرفت فى التمسك بهذه الفكرة ، والتفسير العصرى للدين ، والعمل بمقتضاه ، بما اضطر المرحوم الأستاذ الهضيبى الى نقدها ، والحد من شدتها ، ووضع الأمور فى نصابها ، ويقول فى كتابه المشار اليه فى الصفحات الماضية ــ بعد ما سرد تفسير الأستاذ المودودى لفكرته « حاكمية الاله » :

وقد توهم البعض أن قائل تلك المقالة يرى استحالة أن يأذن الله تعالى للناس أن يضعوا لأنفسهم بعض التنظيمات أو التشريعات التى تنظم جانبا من شؤون حياتهم (٢) » .

ثم يقول الأستاذ الهضيبى وهو يصرح باستبعاد أن يكون الأستاذ المودودى قد رأى هذا الرأى وفكر هذا التفكير :

« والحق أن الله عز وجل قد ترك لنا كثيرا من أمور

---

(١) « معالم فى الطريق » ص ٢١ .
(٢) « دعاء لا قضاة » ص : ٧٢ .

دنيانا ، ننظمها حسبما تهدينا اليه عقولنا فى اطار مقاصد عامة ، وغايات حددها لنا سبحانه وتعالى وأمرنا بتحقيقها ، وبشرط أن لا نحل حراما أو نحرم حلالا ، ذلك أن الأفعال فى الشريعة اما فرض أو حرام أو مباح .

والفرض : الذى فرضه الله علينا واجب لا يملك انسان أن يقرر عدم وجوبه أو يقبل منه ، وفاعل ذلك بعد أن بلغه الحق وقامت عليه الحجة ، جاحد للنص مكذب لربه تعالى ، فهو كافر مشرك بلا جدال .

وما حرمه الله تعالى : حرام الى يوم القيامة لا يملك أحد أن يحله وفاعل ذلك بعد بلوغ الحق اليه وقيام الحجة عليه ، جاحد للنص ، مكذب لربه ، فهو كافر مشرك بلا جدال .

أما المباحات : فان للمسلمين أن يسنوا فيها من الأنظمة — التى قد تتخذ شكل قرار أو لائحة أو قانون — ما تقتضيه الحاجة تنفيذا لنصوص وردت بضرورة تحقيق مقاصد عامة ، ومن هذا القبيل قوانين تنظيم الشورى التى أمر الله تعالى بها « وأمرهم شورى بينهم » (١) و « شاورهم فى الأمر » (٢) وأيضا قوانين تنظيم المرور فى الشوارع العامة وقوانين الوقاية الصحية ،

---

(١) سورة الشورى : ٣٨ . (٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .

وقوانين مقاومة الآفات الزراعية وتنظيم استعمال مياه الرى ، وقوانين التعـــليم ، وقوانين تنظيم المهن المختلفـــة ، كالطب والهندسة والصيدلة وتحديد الشروط التى يجب أن تتوافر فيمن يزاولها ، وقوانين تنظيم الادارات والمصالح وتحديد اختصاصاتها وسلطات كل منها ، وتنظيم الجيش وتحديد الشروط التى يجب توافرها فيمن يلحق به وفى ضباطه ، وصف ضباطه ، وقوانين شروط بناء المساكن بما يحقق سلامتها وتوافر الشروط الصحية فيها ، والقوانين المتعلقة بالشروط اللازم توافرها فى المصـــانع المختلفة ، كل على حسب طبيعة العمل فيهـــا ، وقوانين تنظيم المحال العامة .. الخ .

ولنضرب مثلا بقوانين تنظيم المرور فى الشوارع العامة ، فان الحديث الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه : « ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام » والحديث الثابت عنه عليه الصلاة والسلام الذى يقـــول فيـــه : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » قد فهمنا منهمـــا وجوب المحافظة على دمائنا وأبشارنا وأعراضنا ، وألا يسلم أحدنا الآخر لما فيه هلاكه أو الاضرار به ، ووجدنا اننا لو تركنا أمر السير فى الطرقات العامة بالمركبات والسيارات والدراجات وغيرها من وسائل النقل من غير تنظيم وقواعد يلتزم بها الكل ، ونكفل سلامة

الأموال والابدان ، فاننا نكون قد عرضنا دماء الناس وأبشارهم وأموالهم للاهدار ، وأسلمناهم بذلك لما فيه هلاكهم والاضرار المحقق بهم ..

ولا يجوز لأحد أن يزعم أن تشريعات تنظيم المرور فى هذه الحالة من تشريع الله تعالى عز وجل ، انما هى من تشريعنا واجتهادنا تنفيذا لمقصد عام أمرنا الله به ، وهى تشريعات وقوانين تتبدل وتتغير حسبما تقتضيه الحاجة بتغير وسائل المواصلات » (١) .

ثم يقول :

« وفى هذا كفاية لابطال قول من زعم أن « التشريع صفة من صفات الله عز وجل ، وأن من وضع تشريعا فقد انتزع لنفسه احدى صفات الله عز وجل ، وجعل نفسه ندا لله تعالى خارجا على سلطانه »(٢) .

ويلوح أن الأمر قد تجاوز حده وتفاقم شره ، وأصبح الناس يعتبرون المسلمين الذين اتبعوا أى قانون بشرى من أى نوع كان ، مارقين من الدين ، وأصبح هناك أناس ينادون بأن المسلمين المعاصرين يعيشون فى جاهلية وكفر ، وأن عقائدهم باطلة لاتمت

---

(١) دعاة لا قضاة : ٧٣ ــ ٧٤ .
(٢) ص : ٧٤ من نفس المصدر .

الى العقيدة الاسلامية بصلة ما ، لأنهم جـاهلون لمعظم القوانين . الالهية التى تنظم حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعيـة . وأن أكثريتهم أصبحت تعتقد أن أحكام الشريعة الالهية محصورة فى نطاق العبادات ... يقول الأستاذ الهضيبى مفندا لهذا الراى الخاطىء :

« اعتقاد عامة الناس أن لأولى الأمر حق اصدار القوانين ووضع التنظيمات التى تنظم جوانب من حياتهم السـياسـية والاقتصادية والاجتماعية ، بناء على نصـوص من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، اعتقاد ليس فيه أيضا شبهة الكفر والشرك بل هو اعتقاد فى أصله حق »(١) .

هل الصلة بين العبد والرب هى صلة الحاكم والمحكوم فحسب ؟ :

ونقف هنا وقفة قصيرة ونستعرض ما تدل عليه دراسـة كتاب الاستاذ المودودى « المصطلحـات الأربعـة فى القرآن » والشىء الكثير من كتاباته ، من أن الصلة بين الله والانسـان ، والعبد والرب ، هى فى الواقع صلة الحاكم والمحكوم ، وصـلة الرعية والملك ، وأن صفة «السلطة العليا» و «الحاكمية المطلقة» هى الأصل من بين أسماء الله الحسنى وصفاته السامية الكثيرة ،

---

(١) نفس المصدر ، ص : ٧٩ .

وكأن الدعوة الى الايمان بحاكمية الاله والاذعان لسلطته العليا وصوغ الحياة فى قالب متطلباتها ، كان هدف النبوة الأساسى ، ومقصد بعثة الأنبياء وأساس دعوتهم ، وغاية نزول الكتب والصحف السماوية كلها .

ومهما كان ذلك نتيجة لازمة للايمان بالله والدخول فى حظيرة الاسلام ، ومهما كانت طبيعة الاسلام تقتضيه اقتضاءا طبيعيا ، فانه جزء صغير بالنسبة الى صفات الله وذاته ، وصلته بعباده وصلة عباده بنفسه ، وليس هو كل شىء كما يظنه هؤلاء السادة . والواقع أن صلة الخالق والمخلوق والعبد والمعبود هى أشمل وأوسع ، وأعمق وأدق ، بكثير وكثير من صلة الحاكم والمحكوم ، والآمر والمأمور ، والسلطان والرعية ، وقد لهج القرآن الكريم بذكر أسماء الله وصفاته فى بسط وتفصيل وأسلوب شيق جميل ، لا يدلان ابدا على أن المطلوب من العبد هو الايمان بمجرد حاكميته المطلقة والاذعان لسلطته العليا ، وأن لا يشرك آخرين معه فى سلطته ، اقرأ على سبيل المثال الآيات التالية من أواخر سورة الحشر :

« هو الله الذى لا اله الا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا اله الا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ،

هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » (١) .

مقتضى الأسماء والصفات والأفعال الالهية :

ان هذه الأسماء والصفات والأفعال الالهية — التى زخر القرآن الكريم بذكرها — تتطلب فى صراحة ، أن يحب العبد الهه وربه بقلبه وقالبه ، وأن يتفانى فى طلب رضاه ، وأن يتغنى بمجده ويسبح بحمده ، وأن يلهج بذكره قياما وقعودا ، وأن يكون ذلك هو شغله الشاغل وهمه الوحيد ، وأن يظل خائفا منه ، فزعا من بطشه وقهره ، وجلا من غضبه وسطوته ، ملتجئا اليه فى كل حال ، مادا اليه يد السؤال ، متضرعا اليه بالحاح واقبال ، متطلعا الى جماله الذى هو مصدر الحسن والاحسان ومنتهى الفضل والكمال ، تملكه عاطفة البذل فى سبيله بكل ما عنده من نفس ونفيس ، وغال ورخيص .

والذين حصروا صفات الله وحقوقه ، فى حق الحاكمية والسلطة العليا وحده ورأوه أصل الحقوق الالهية ، وأول المطالب الربانية ، أخاف أن يكون قد صدق عليهم قول الرب تبارك وتعالى : « وما قدروا الله حق قدره » ... ان القرآن الكريم قد استخدم التفصيل والتوسع فى ذكر الصفات واثباتها ، بالعكس

---

(١) سورة الحشر : ٢٢ — ٢٤ .

من الفلسفات القديمة التى استخدمت التفصيل والتدقيق فى نفى الصفات ، واذا كان لابد من ذكرها لجأت الى الاجمال والايجاز ، يقول شيخ الاسلام ابن تيميه : « ان أسلوب القرآن المجيد هو النفى المجمل والاثبات المفصل »(١) ... انه اكتفى فى النفى بقوله القاطع « ليس كمثله شىء » أما فى الاثبات فيختار ذلك الأسلوب التفصيلى العجيب الذى مر مثاله مقتبسا من سورة الحشر ، وذلك لأن الحب العميق والانجذاب الكامل ، والعشق المتيم ، لا يتأتى بدون الاطلاع على الصفات اطلاعا دقيقا ، والاحاطة بها احاطة شاملة ، وتنجلى مظاهر هذه الصفات فى حياة الأنبياء وأعمالهم وسيرتهم وسلوكهم ، ولا سيما فى أعمال سيد الأنبياء وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، وتعاليمه وتربيته ، وفى كيفية صلاته وقيامه ، وفى دعائه والتجائه ، وابتهاله وتضرعه ، وانابته واخباته ، وحبه وحنينه ، وتشوقه لذات الله ، وامعانه فى الذكر والعبادة ، والاستراحة اليهما ، والتذوق والتحلى بهما . كما تتجلى فى حياة صحابته الكرام وأتباعهم العظام ، والبررة والصالحين والعلماء الربانيين فى الأمة .

وكان ذلك كله ناشئا من انهم لم يكونوا يؤمنون بالله كالحاكم الأعلى والسلطان الأعلم فحسب ، بل كانوا يرونه ـ بجانب كونه

---

(١) راجع كتاب النبوءات لابن تيمية .

معبودا وربا — محبوبا حقيقيا ، وموضع الحب الأصيل ، ومنتهى الجلال والجمال ، والفضل والكمال .

تعريف « العبودية » و « الاله »

لدى شيخ الاسلام ابن تيمية :

وهذا شيخ الاسلام ابن تيمية — وهو فى مكانته من الفهم لروح الاسلام ، والتضلع من علوم الكتاب والسنة ، والبعد عن كل ما أحدث فى القرون الأخيرة — لا يرى الطاعة والتذلل وحدهما يوفيان حق العبودية التى هى حق الاله والرب ، تلك الطاعة والتذلل اللذان يمارسهما الانسان لمن يعتقد فى سلطته العليا وحاكميته المطلقة ، ويرضى بهما ذلك الحاكم الأعلى بدوره أيضا ... بل يشترط للعبودية بالاضافة الى الخضوع والتذلل ، غاية الحب التى تتطلب — بجانب الحاكمية والسلطة — صفات وفضائل تجعل السلطان الأعلى والحاكم على الاطلاق يستحق أن يكون موضع غاية الحب فى نظر « العبد » و « العابد » . يقول فى رسالته الشهيرة « العبودية » :

« لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهى تتضمن غاية الذل لله تعالى ، بغاية المحبة له » (١) .

---

(١) « العبودية » لشيخ الاسلام ابن تيمية ، طبع وتوزيع : المكتب الاسلامى ١٩٦٣ م ، ص : ٦٠ .

ويقول :

« من خضع لانسان مع بغضه له لا يكون عابدا له ، ولو أحب شيئا ولم يخضع له ، لم يكن عابدا له ، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه ، ولهذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب الى العبد من كل شىء وأن يكون الله أعظم عنده من كل شىء » (١) .

ولا يكتفى بهذا القدر ، بل يقول وهو يشرح « الاله » ويشير الى اشتقاقه :

« الاله هو الذى يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم ، والاجلال والاكرام ، والخوف والرجاء ، ونحو ذلك » (٢) .

وتدل عبارته الأخرى دلالة صريحة على أن الصلة بين العبد والمعبود ليست هى صلة الحاكم والمحكوم وحدها بل الأولى أوسع من الثانية بدرجات كثيرة ، وأجمع وأشمل ، فهى تشمل المعرفة والانابة والمحبة والاخلاص والذكر ، وما الى ذلك ، على حين يكفى للحاكم مجرد الخضوع والتذلل ، والطاعة والانقياد .

يقول :

---

(١) نفس المصدر ، ص ٧ - (٢) المصدر نفسه ، ص : ١٣

« ان الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته ، والانابة اليه ومحبته ، والاخلاص له ، فبذكره تطمئن قلوبهم ، وبرؤيتـه فى الآخرة تقر عيونهم ، ولا شىء يعطيهم فى الآخرة أحب اليهم من النظر اليـه ولا شىء يعطيهم فى الدنيـا أعظم من الايمـان بـه » (١) .

ويقول وهو يتحدث عن هذه العبادة :

« ولا صلاح لهم ولا فلاح ، ولا نعيم ولا لـذة ، بدون ذلك بحال ، بل من أعرض عن ذكر ربه ، فان لـه معيشة ضـنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » (٢) .

ما أعظم الفرق وأعمقـه بين تعريف الاله هـذا ، وبين التعريف الذى يجعل الحاكمية والسلطة العليا ــ التى ترجمهـا الأستاذ المودودى نفسه بـ (Sovereign) ــ ملاك الأمر فى باب الألوهية ، واذن فمن الواضح أن هذا « الالـه الرسمى » لا يحتاج الانسان بصدده الى الحب ولا الاكثار من الذكر ، بـل يكفيه مجرد الطاعة الكاملة والولاء والاخلاص (Loyalty)

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ، ج ١ ، ص ٢٣ طبع ١٣٨١ هـ
(٢) نفس المصدر ، ص ١٣ .

الدعوة الى التوحيد واستئصال شأفة الشرك ، كانا هــدف بعثة الأنبياء وتعليمهم ودعوتهم الأساسى عبر التاريخ البشرى :

يقول الأستاذ المودودى ــ وهو يقرر أن الحــكم والسلطة لا يقبل شىء منهما التجزئة والتقسيم : ــ

« فالذى يعتقد أن أمر كائن ما من دون الله مما يجب اطاعته والاذعان له ، بغير سلطان من عنــد الله ، فانه يأتى من الشرك بمثل ما يأتى به الذى يدعو غير الله ويسأله وكذلك الذى يــدعى أنه مالك الملك والمسيطر القاهر ، والحاكم المطلق بالمعــانى السياسية ، فان دعواه هذه كدعوى الألوهية ممن ينادى بالناس : « انى وليكم وكفيلكم وحاميكم وناصركم » ويريد بكل ذلك المعانى الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية » (١) .

ان هذه العبارة تنم عن أن الاشراك فى الحكم ، والاشراك فى الألوهية أو العبادة ، يتساويان ولا يتفاضلان ، بل انهما شىء واحد ، وأن طاعة أحد والخضوع لحكمه بالمعانى السياسية شرك ، كشرك من يعبد أحدا غير الله (فى دائرة ما بعد الطبيعة) ويتقــدم اليه بالدعاء ، ويتقرب إليه بالنذر والذبح ، والخوف والرجاء ...

---

(١) « المصطلحات الأربعة فى القرآن » ص ٣١ ــ ٣٢ .

ويبدو أن الاستاذ المودودى لا يعنيه الا الدعوة الى الطاعة السياسية لأحد ، والخضوع لسلطانه ، والاذعان لحاكمبته ، ورد حق التشريع اليه ، وعلى ذلك تتركز جهوده الكتابية ومحاولاته القلمية ، ومن يقصر مطالعته على هذه المقالات والكتابات وحدها ، ويعيش فيها ويتنفس فى جوها ، ويتغذى بها عقليا وفكريا ، تتأكد فى نفسه أولية الاشراك فى الحكم وأهميته طبيعيا وتتضاءل عنده شناعة الاشراك فى العبادة — اذا لم يكن له نصيب من تعليم دينى قائم على اساس الكتاب والسنة ولم تفعل فيه العوامل والمؤثرات الثقافية والتربوية الأخرى — والاعتقاد فى أحد (فى دائرة ما بعد الطبيعة) بأنه موضع العبادة والاستعانة ، والتضرع والدعاء ، والسجود والخضوع ، وما الى ذلك من مظاهر غاية التعظيم والتقديس ، أو يرى أن ذلك كله من خصائص الجاهلية القديمة البدائية حيث كان العقل البشرى فى مرحلة الطفولة ، وكان العلم والثقافة والمدنية لا تزال فى المراحل الأولى، واما الآن وقد تقدم الزمان ، فان تركيز العناية عليه ، والتصدى لمقاومته ومحاربته ، معناه اضاعة الوقت والجهد ، وجهاد فى غير جهاد ، وانصراف عن الأهم الى غير الأهم .

وبالعكس من ذلك نرى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم فى كل زمان ومكان وفى كل بيئة هو تصحيح العقيدة فى الله تعالى ، وتصحيح الصلة بين العبد وربه ،

والدعوة الى اخلاص الدين وافراد العبادة لله وحده ، وأنه النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده ، وكانت حملتهم مركزة موجهة الى الوثنية القائمة فى عصورهم ، الممثلة بصورة واضحة فى عبادة الأوثان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات ، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية « أن الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله ، وجعلهم متصرفين فى بعض الأمور الخاصة ، ويقبل شفاعتهم فيهم بالاطلاق ، بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكا ويقلده تدبير تلك المملكة فى ما عدا الأمور العظام(١) » .

وكل من له صلة بالقرآن ـــ وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة ـــ يعرف اضطرارا وبداهة أن القضاء على هذه الوثنية ، والانكار عليها ومحاربتها ، وانقاذ الناس من براثنها كان هدف النبوة الأساسى ، ومقصد بعثة الأنبياء ، واساس دعوتهم ومنتهى أعمالهم ، وغاية جهادهم ، وقطب الرحى فى حياتهم ودعوتهم ، حولها يدندنون ، ومنها يصدرون ، واليها يرجعون ، ومنها يبدأون واليها ينتهون ، والقرآن تارة يقول باجمال « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله

(١) التعبير مأخوذ من كتاب « حجة الله البالغة » للامام أحمد ابن عبد الرحيم ولى الله الدهلوى .

الا أنا فاعبدون »(١) ، وتارة يقول بالتفصيل فيسمى نبيا نبيا ، ويذكر أن افتتاح دعوتـــه كان بهذه الدعـــوة الى التوحيد(٢) .

وقد سمى القـــرآن عبـــادة الأوثان « الشرك الأكبـــر » و « الرجس » و « قول الزور » وشنع عليه التشنيع الأعظم ، فقال فى سورة الحج : « ذلك ومن يعظم حـــرمات الله فهو خـــير له عند ربه ، وأحلت لكم الأنعـــام الا ما يتـــلى عليكم : فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قـــول الزور ، حنفـــاء لله ، غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنمـــا خر من الســـماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق »(٣) .

أسوة الأنبياء وطبيعة النبوة :

وتلك هى طبيعة النبوة وطبيعة الدين الذى تجىء به النبوة . ان أكره شىء اليهما هى هذه الوثنية وعبادة الآلهة الكاذبة والأوثان والأصنام المنحوتة على يد البشر ، التى يسجد لها الناس ويتقربون اليها بالدعاء والتضرع والنذر والذبح ، ذلك الذى لا يجوز لغـــير

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٢) اقرأ على سبيل المثال الآيات ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ من سورة هود .. والآيات ٥١ ، ٥٤ من سورة الأنبيـــاء .. و ٦٩ ، ٨٢ من سورة الشعراء .. و ٤١ ، ٤٢ من سورة مريـــم .. و ١٦ و ١٧ و ٢٥ من سورة العنكبوت .. و ٣٧ و ٤٠ من سورة يوسف .

(٣) ٣٠ — ٣١ من سورة الحج .

الله ، ومن أجل ذلك حينما دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكـة فاتحا منتصرا يتمتع فيها بما لم يكن يتمتع به من ذى قبل ، من الكلمة النافذة والأمر المطاع والسلطة الكاملة ، صنع أول ما صنع انه دخل الكعبة التى كان فيها وفيما حولها ثلاث مائة وستون صنما فجعل يغمزها بقوس فى يده فتتساقط على وجوهها ، وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا »(١) « قل جـاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد »(٢) .

ولم يكتف بهـذا القدر ، بل أرسـل سراياه الى مـواطن الأوثان حول الكعبة فحطمت كلها ، منها أمثـال اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، التى كانت كبرى الأصـنام المركـزية فى الجاهلية ، كان يتوافد اليها الناس من الأنحاء يعبدونها ويسجدون لها ، ونادى مناديه بمـكة « من كان يؤمن بالله واليـوم الآخـر فلا يدع فى بيته صـنما الا كسره » ، وبعث رجالا من أصـحابه الى القبائل فهدموا أصنامها(٣) . ويقـول جـرير بن عبـد الله البجلى رضى الله عنه : « كان بيت فى الجاهلية يقال له «ذو الخلصة»

---

(١) سورة بنى أسرائيل ، ٨١ .

(٢) سورة سبأ ٤٩ راجع صحيح البخارى » باب اين ركز النبى صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح . واقرأ للتفصيل « زاد المعاد » ج ١ ص ٤٢٤ .

(٣) راجع للتفصيل زاد المعاد ج ١ ، ص ٤٣٩ .

و « الكعبة اليمانية » و « الكعبة الشامية » فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم : ألا تريحنى من « ذى الخلصة » ؟ فنفرت فى مائة وخمسين راكبا فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فدعا لنا ولـ « أحمس »(١) . وقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم من اهتمامه بشأن ازالة آثار الجاهلية وشعائر الوثنية ، الى أن بنى ثقيف لما ترجوه صلى الله عليه وسلم أن يبقى صنمهم القومى « اللات » لثلاث سنين ، وألحوا على ذلك حتى تنازلوا الى سنتين ، فالى سنة ، فالى شهر ، أبى كل الاباء ، وأنكر عليهم أشد الانكار ، وأرسل المغيرة بن شعبة وأبا سفيان ابن حرب فهدماه وبلغت به كراهيته للشرك وعبادة غير الله (فى دائرة ما بعد الطبيعة) الى أنه قال فيما قال فى مرض وفاته ولدى لحوقه بالرفيق الأعلى : « قاتل الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد »(٢) وتقول عائشة وابن عباس رضى الله عنهم « لما نزل(٣) برسول الله صلى الله عليه وسلم ، طفق يطرح خميصته على وجهه فاذا اغتم(٤) كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ـــ

---

(١) صحيح البخارى باب غزوة ذى الخلصة .
(٢) موطأ الامام مالك (٣) يعنى المرض .
(٤) احتبس نفسه من الخروج من أجل شدة الحر .

يحذر ما صنعوا(١) .

مما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يرى الشرك واتخاذ شعائره ، أقدم أدواء الأمم والملل ، وكان يخاف أن تعود الوثنية ، وتدب فيها الحياة وتستأنف النشاط ، فحذر منها أمته ، ولم يفته أن يؤكد الانذار حتى في هذا الموقف الدقيق وفى آخر عهده بالدنيا ، وأعرب عن أشد كراهيته ومقته لها ، وتأذيه بها ، وتألمه منها ، ومعنى ذلك أن الدنيا مهما تغيرت ، وأن الزمان مهما تقدم ، وأن الاسلام مهما قطع أشواطا بعيدة فى التقدم والانتشار والانطلاق ، فسيظل هذا الخطر قائما ، وعلى العلماء وأصحاب الدعوة الاسلامية والنائبين عن الأنبياء أن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، وان يعدوا لمقاومته عدتهم ، وأن لا تجدن الهوادة عندهم منفذا فيما يتصل بهذا الجانب .

لا تزال ((اللات)) و ((مناة)) غضتين وفى طور شبابهما :

ان هذه الوثنية والشرك ــ بمعنى التأله لغير الله ، وغاية التذلل له ، والسجود والدعاء والاستغاثة به ، والنذر والذبح له ــ هى الجاهلية العالمية التى هى أقدم أدواء البشر ومواضع ضعفه وسقطته ، وهى باقية مع البشر فى جميع مراحل حياته وتطوراتها ،

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى صلى الله عليه وسلم ووفاته .

وهى التى تثير غضب الله وغيرته ، وتحـــول بين العبـــد وتقدمه الروحى والخلقى والمدنى ، وتهبطه من أعلى الدرجات الى أسفل الدركات « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين »(١) تهبطه من درجة مسجود للملائكة الى درجة ساجد للضعيف من المخلوقات والخسيس من الموجودات .

انها هى الجاهلية التى تخنق القوى ، وتقتل المواهب ، وتقضى على الاعتماد على الله ، والاعتداد بالنفس والثقة بهـــا ، وتصرف الانسان عن الالتجاء الى الله السميع البصير ، العـــليم القـــدير ، الجواد الوهاب ، الغفور الودود ، والاستفادة من صفاته التى لاتعد وخزائنه التى لا تنفد ، الى الالتجاء الى الضعيف الفقير ، العاجز الحقير ، الذى لا يملك شيئا ، « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم ، له الملك ، والذين تدون من دونه ما يملكون من قطمير ، ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير ، يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد »(٢) .

---

(١) الآيتان : ٤ ــ ٥ من سورة التين .
(٢) سورة فاطر ، الآيات : ١٣ ــ ١٤ ــ ١٥ .

موضوع جهاد الأنبياء وجهودهم على مدار التاريخ البشرى :

هذه الوثنية ــ فى دائرة ما بعد الطبيعة ــ بجميع أشكالها الواضحة والدقيقة ، كانت موضوع جهاد الانبياء فى كل عصورهم وفى جميع بيئاتهم ومجتمعاتهم ، وهو الذى أثار غضب اهل الجاهلية ، فقالوا : « أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، ان هذا لشىء يراد ، ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق »(١) .

ومما لا يشك فيه عاقل درس تاريخ العصر النبوى ، واطلع على أخبار صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن الصحابة لم يكونوا يفهمون من هذه الآيات التى سردناها الا هذه الوثنية السافرة ، وعبادة الأصنام والأوثان ، وتقديس الاشخاص الماضين أو الموجودين والسجود لهم ، والدعاء منهم ، والذبح والنذر لهم ، والحلف بأسمائهم ، والتقرب الى الله بعبادتهم ، والاعتماد على شفاعتهم المطلقة التى لا ترد ، وطلب النفع والضر وكشف الكربه منهم ، وهذا هو المستفيض المتواتر من آثارهم وأخبارهم ومناهج كلامهم ، لا يختلف فيه اثنان .

ولا يزال هذا هو الركن الأساسى فى الدعوات الدينية وحركات الاصلاح الى يوم القيامة ، وهو تراث النبوة الخالد

---

(١) سورة ص ، الآيات : ٥ ــ ٦ ــ ٧ .

« وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون »(١) . وشعار جميع الدعاة الى الله وجميع المصلحين المجاهدين .

أما مظاهر الجاهلية الأخرى كالطاعة لغير الله ، والتحاكم الى غير الله وقبول التشريع غير الالهى ، وتسليم حكومة لا تقوم على النيابة عن الله ، وعلى أحكامه ، فكل ذلك يتبع هذه الوثنية والشرك ويأتى بعده ، ولا يجوز أن يقلل من شأن هذا الشرك الجلى المتقدم ذكره ، وأهميته ، وأن يوضع فى الهامش من منهاج دعوة أو جهاد ، أو يساوى بينه وبين معانى الطاعة والحكم السياسية ، ويحكم عليها حكما واحدا ، أو يعتقد أنه من خصائص الجاهلية القديمة المحدودة المتخلفة التى ولى عصرها وانقضى دورها، لأن ذلك لا يتفق مع الواقع المشاهد ، فلا تزال الوثنية والشرك تقوم على قدم وساق بأشكالها وأنواعها القديمة ، وما يصنعه الجهلة من الناس من أعمال الشرك الجلى على ضرائح الأولياء والصالحين فيه كفاية ومقنع ، فلم يتركوا شيئا من غوايات الجاهلية القديمة وضلالات الأمم الماضية ، وغلوهم فى تقديس غير الله وتعظيمه ، والسجود له ، والنذر والذبح له ، والدعاء والالتجاء اليه ، والخوف والرجاء منه ، والحياء والتأدب معه — الذى لا يستحقه الا الله سبحانه وتعالى — الا أتوا به

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ، ٢٨ .

جهارا وعلانية(١) ، لك أن تشاهده بأم عينيك هنا وهناك فى كل مكان .. ثم ان هذه النظرية ، نظرية أن مظاهر الشرك الجلى المتقدم ذكره ، من خصائص الجاهلية الأولى الساذجة ، اساءة الى دعوة الأنبياء وجهودهم ، وشك فى خلود القرآن ، وأنه هو الكتاب الأخير الدائم ، ولا شك فى أن منهاج النبوة هو المنهاج الصحيح الذى ارتضاه الله تعالى ، والذى كتب له من النجاح والتوفيق والانتاج والاثمار ما لم يكتب لأى منهاج من مناهج الاصلاح .

مكانة العبادات بعد التسليم بأن حقيقة الربوبية والألوهية هى السلطة والحاكمية :

واذا كان — عند الأستاذ المودودى — « أصل الألوهية وجوهرها هو السلطة »(٢) واذا كان « كل من الألوهية والسلطة تستلزم الأخرى وأنه لا فرق بينهما من حيث المعنى والروح »(٣) و « أن القرآن يجعل « الربوبية » مترادفة

---

(١) اقرأ على سبيل المثال كتب « الرد على البكرى » و « الرد على الأخنائى » لشيخ الاسلام ابن تيمية ، و « تقوية الايمان » للعلامة الشيخ اسماعيل الشهيد . وقد نقله الى العربية كاتب هذه السطور باسم « رسالة التوحيد » .

(٢) راجع « المصطلحات الأربعة فى القرآن » ص ٢٣ .

(٣) راجع نفس المصدر . ص ٢٩ .

للحاكمية والملكية (Sovereignty) »(١) فاذا لا يعود مفهوم « العبادة » — التى هى وظيفة العبد وحده — وأصلها وحقيقتها ، الا الطاعة والانقياد والولاء والوفاء (Loyalty) .. وقد أخذت النقطة المركزية للربوبية والألوهية ، وفكرتهما الرئيسية وأخص خصائصهما (السلطة) ، ومفهومهما الوحيد ، وحقيقتهما الأصيلة ، كلّ مأخذ من ذهنه ، حتى ضعف فيما يرى هو — أى بتعبير أدق فيما تدل عليه كتاباته — شأن العبادات وأعمالها ومظاهرها وشعائرها ، التى شرعتها الشريعة ، ودعا اليها الدين ، وأحبها النبى حبا يفوق الوصف ، وجاءت عشرات من الآيات القرآنية ومئات من الأحاديث النبوية ، ترغب فيها ، وتنوه بشأنها ، وتشيد بذكر فضائلها ، وتحرض على التنافس فيها ، وتثنى على المكثرين منها والمعنيين بها ، وتندد بالراغبين عنها أو المقصرين فيها .. وطبعا بدت له الشعائر التعبدية فى درجة ثانوية ، وبدا له الانهماك والتوغل فيها والمداومة عليها ، نتيجة الجهل لروح الدين ورمز عهد الانحطاط ، وأخذت فكرته ودعوته هذه شدتها وحدتها حتى جعلت أسلوبه الكتابى يتسم — لدى الحديث عن الفكرة المركزية للعبادات وروحها وجوهرها ، التى لا يتجاسر أحد من أهل العلم أن ينكر أهميتها فى حد ذاتها —

---

(١) انظر المصدر السابق . ص ٩٣ .

بما يشبه الاستخفاف بتلك العبـادات المشروعة ، والاكثـار من الصلاة والذكر ، وهنالك يتحول أسلوبه عن أسـلوبه الكتـابى الهادىء ، الى الأسلوب الانشائى الهادر .

يقول ــ وهو يتحدث عن عناصر العبادة (الولاء للسيد ، والطاعة له ، وتعظيمه) ويقرر أن هذه الأمور الثـلاثة هى التى عبر عنها الله سبحانه بكلمة « العبادة » الجامعة ــ :

« استحضر فى ذاكرتك هذا المعنى « للعبـادة » ثم أجب على تساؤلاتى الآتية :

ما رأيك فى الخادم(١) الذى بدل أن يذهب فيقوم بالوظيفـة التى أسندها اليه سيده ، يظل قائما أمامه واضعا احدى يديه فوق الأخرى ، يتلو اسمه ملايين المرات ؟ يقـول له سـيده : اذهب فأد حق فلان وفلان ، لكنه لا يبـرح مكانه ويسـلم على سـيده عشر تسليمات راكعا خاضعا ، ويستوى قائما يضـع احدى يديه فوق الأخرى ، ويأمـره سيده قائلا : اذهب فاقض على هـاتى المفاسد ، لكنه لا يتحرك من مكانه قيد بوصـة ، ويسـجد لسيده

---

(١) وكلمة «الخادم» تدل على أن الاستاذ المردودى لا يرى الصلة بين العبد والمعبود والانسان والاله ، تختلف عن الصلة بين الحاكم والمحكوم . ولا فوق الصـلة بين السيد والخـادم والآمر والمأمور . فهو يقول فى صريح العبارة : « ومن يصنع هذا الصنيع من خدم الاله تحسبه أنت عبادا ! » .

مرة بعد أخرى ، يقول له سيده : اقطع يد السارق ، فيظل قائما ويكرر عشر مرات بصوت جميل : اقطع يد السارق ، اقطع يد السارق ، لكنه لا يتحرك ليقوم ولو مرة واحدة بمحاولة لاقامة نظام الحكم الذى يسمح بقطع يد السارق . أفهل تقول : ان الرجل يعبد سيده فى معنى الكلمة ؟ ! وانى لأعلم ما ستقوله لخادم لك وقف هذا الموقف ، ولكن ياله من عجب منك .. من يصنع من خدم الاله هذا الصنيع تحسبه أنت عابدا ، الله أعلم كم مرة يقرأ هذا المسكين أحكام الله فى القرآن الكريم منذ الصباح الى المساء ، لكنه لا ينشط من مكانه لتحقيق تلك الأحكام ، بل يستمر يصلى النفل بعد النفل ، ويسبح باسم الله على سبحة ذات الف حبة ، ويلحن فى تلاوة القرآن ، وأنت ترى صنيعه هذا ، فتقول : ما أعبده وما أزهده ! وانما وقعت فريسة هذا الفهم الخاطىء لأنك لا تدرى المعنى الحقيقى للعبادة »(١) .

ومن ألم بمحاولات الاصلاح والدعوة ـــ التى لا تزال مستمرة منذ اليوم الأول حتى يوم الناس هذا ـــ وقرأ كتابات العلماء الراسخين فى العلم وفى الدين ، أو استمع لخطباتهم ، يعلم انهم دائما دعوا الى العناية بجانب تربية الروح والحقيقة فى الصلاة

---

(١) « خطبات » ـــ باللغة الأردية ـــ الجزء الثالث ص ٦ ، ٧ توزيع المكتبة الاسلامية المركزية ، دهلى (الهند) .

والذكر وسائر العبادات ، والى الأخذ ـ بجانب هذه العبادات ــ بجميع الأحكام الشرعية وتطبيقها فى الحياة ، والقيام بمحـــاولات تنفيذها في المجتمع البشرى ، وقد وصفوا الحياة التي لا يوافق فيها الظاهر الباطن ، والجسم والروح ، بل يخالف فيها القول الفعل ، والظاهر الباطن ، بحياة النفاق ، وظل هؤلاء الاعلام منذ الامام الحسن البصرى رحمة الله عليه الى يومنا هذا ينبهون المسلمين ، ويدعونهم دعوة حثيثة الى هذه الحقيقة ، ويقولون لهم : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » (١) لكنهم لم يتخذوا قط ــ فى التركيز على هذا الجانب الأهم ــ أسلوبا يتســـم باســـتهانة بقيمة الاشتغال بهذه العبادات والأذكار ، والاكثار من التســبيح والتحميد والتلاوة ، ولا سيما فى هـــذا العصر الذى طغت فيه المـــادة على الروح ، وبدأت تقل تلقائيا أهمية الاكثـــــار من العبادة والذكر ، وأصبح الأسلوب المـــادى والســـياسى يفرض سيطرته على الحياة ، فكم كان يتحتم التحفظ ، وملاحظـــة الدقة والحكمة لدى الحديث عن مثل هذا الموضوع الدقيق الحساس فى

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٨ .

مثل هذا الوضـــع المكهرب ، فان النـــائم يكفيه أدنى هزه للسقوط .

اشادة القرآن بذكر الاكثار من
أعمال العبادة ، وترغيبه فى ذلك :

وعلى العكس من ذلك نجد القرآن الكريم يرغب مرة بعـد أخرى فى الاكثار من هذه الأعمال ، ويثنى على المكثرين منهـا ، وينوه بشأنهم ، ويلهج بذكرهم فى معرض المدح والثناء :

« تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعـا ومما رزقناهم ينفقون » (١) .

« والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما » (٢) .

« والمستغفرين بالأسحار » (٣) .

« والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » (٤) .

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصـيلا »(٥) .

ويمكنك أن تقدر مدى استحسان الله سبحانه لصفة الذكر

---

(١) الآية ١٦ من سورة السجدة
(٢) الآية ٦٤ من سورة الفرقان
(٣) سورة آل عمران ١٧
(٤) سورة الأحزاب ٣٥
(٥) سورة الأحزاب : ٤٢ .

والانابة والاخبات والاقبال على ذات الله ، من أنه يحث رسوله الحبيب محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الخلائق — الذى عن طريق تعاليمه نالت الأمة أنواع سعادة الدنيا والآخرة — على ان يبالغ فى تقدير المتحلين بهذه الخصال وتفضيلهم ، يقول :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم ؛ تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ، وكان أمره فرطا »(١) .

ويقول فى موضع آخر :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين »(٢) .

اما الأحاديث الصحيحة التى تنوه بفضيلة الاكثار من النوافل والذكر والتلاوة ، فهى فى عدد يستعصى على الاستقصاء، وللقارىء الكريم أن يراجع الكتب والأبواب المفردة لبيان ذلك فى كتاب من كتب الصحاح الستة ، وليقرأ خاصة حديث التقرب

---

(١) سورة الكهف : ٢٨.
(٢) سورة الأنعام ٥٢ .

بالنوافل (١) ليدرك مدى فضيلة النوافل وكبر شأنها ، أما الاكثار من الذكر فيكفى الحديث التالى :

« غن عبد الله بن بسر رضى الله عنـــه أن رجـــلا قال : يارسول الله ان شرائع الاســـلام فد كثرت على فأخبرنى بشىء أتشبث به . قال : لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله » (٢) .

الاعتقـــاد بمجـــرد حاكميـــة الاله وسلطة الرب ، وتأثيره النفسى :

ان هذا المنهج من التفكير ، وهذا الأسلوب الكتابى ـــ الذى قد أسلفنا نماذج منه ـــ يشكل خطر ظاهرة خطيرة ـــ وقد بدت آثارها ـــ وهى أن الذين يستقون معلوماتهم الدينية من نبع هذا التفسير للاسلام وحده ، وتقتصر دراستهم للاسلام على هـــذه الكتابات وحدها ، ستعود علاقتهم مع الله ضيقة ، محدودة جافة ، جامدة رسمية ، فارغة من الكيفيات الداخلية ، التى مطلوب من المؤمن أن يتكيف بها ، ولا سيما اذا جاء الضغط مرارا وتكرارا على أن الهدف الجذرى من بعثة الأنبيـــاء ، وأن غـــاية تعاليمهم ومنتهى أعمالهم ، هو احداث التغيير فى هذه الحياة الدنيا المحـــدودة ،

---

(١) وهو الحديث الذى رواه الشيخان فى صحيحيهما « لايزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أكون سمعه الذى يسمع به «الخ».

(٢) رواه الترمذى .

والقيام بالانقلاب الصالح ، وتأسيس الحضـــارة البشرية على الأسس الصحيحة ، واذا جاء التركيز على هذه الناحية بشـــدة وحدة ، وحماس وقوة ، وبأسلوب يجعل تصورات الحب الالهى ، والرضا الربانى ، والفلاح الأخروى تتضاءل ، فمن الطبيعى ومما يتفق والعقل والمنطق والقياس ، أن يحيد ركب السعى والعمل عن جادة الايمان بالغيب ، والحنين الى الآخرة ، وطلب رضـــا الله ، والتفانى فى حبه ، تلك الجادة التى وضـــعه عليها الأنبياء عليهم السلام ، الى درب طلب الحكم والعز والغلبة والوصول الى الحكم ، وبالتالى الى المادية المجردة .

اقرأ المقتطفات الآتية لكى تدرك بعض الشىء أى نوع من القلوب والأذهان سيصوغها هذا القالب من التفكير :

١ — « ان الاسلام يهدف أصلا الى تخريج جمـــاعة من الصالحين تقوم ببناء المدنية الانســـانية على أسس من الخـــير والفلاح » (١) .

٢ — « من أجل تأسيس هذه الحضارة والمدنية فى الأرض بعث الأنبياء عليهم السلام تترى »(٢) .

---

(١) «نظرة فاحصة على العبادات الاسلامية» (باللغة الأردية) الجزء الأول ، ص ٧٥ ، توزيع : « دار الاشاعة نشأة ثانية » حيدر آباد .

(٢) « التجديد واحياء الدين » (باللغة الأردية) توزيع مكتبة الجماعة الاسلامية ، دار الاسلام « بتهان كوت » بنجاب ، ص ٢١ .

٣ — « فغاية مهمة الأنبياء — عليهم السلام — فى الدنيا هى الحكومة الالهية وتنفيذ نظام الحياة — بجميع أجزائه — الذى جاءوا به من عند الله »(١) .

ويقول فيما بعد هذه السطور :

« من أجل ذلك حاول الأنبياء احداث الانقلاب السياسى ، فاقتصرت جهود بعضهم على تهيئة الأرض ، كسيدنا ابراهيم عليه السلام ، وقام بعضهم فعلا بحركة الانقلاب ، ولكن عملهم قد توقف دون أن يتحقق تأسيس الحكومة الالهية كسيدنا المسيح عليه السلام ، وبعضهم قد وصلوا بهذه الحركة الى منزل النجاح ، كسيدنا موسى عليه السلام ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم »(٢) .

هل العبادات والأركان الأربعة الاسلامية ، هى مجرد وسائل ؟

اضف الى ذلك أن المؤلف الداعية ، تتملك عليه هذه « الفكرة المركزية » مشاعره ، وتستولى عليه استيلاء يجعل جميع العبادات الاسلامية وأركان الاسلام الأربعة الصلاة ، الصوم ، والزكاة والحج) تبدو له وسائل وذرائع الى تلك

(١) المصدر نفسه ص ٢٢ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٢ .

الغاية ، وتدريبا لها ، وتمرينا لها ، وتمرينا عليها ، قد صرح بذلك مرات ومرات ، يقول فى موضع :

« هذه هى الغاية التى من أجلها فرض الاسلام عبادات الصلاة والصوم ، والزكاة والحج ، والتعبير عنها بالعبادة لا يعنى أنها هى العبادة ليس غير ، بل معنى ذلك أنها تعد الانسان لتلك العبادة ، فكأنها مقررات تدريبية لازمة لها » (١) .

بيان القرآن الصريح وترتيبه الصحيح :

ان العبارة المذكورة أعلاه تدل دلالة واضحة على أن العبادات المعينة المشروعة (الصلوات الخمس) فى الواقع وسائل الى غاية أخرى ، هى الطاعة وتأسيس الحكومة الالهية ، واعادة التنظيم الى الحياة ، على حين ينص القرآن الكريم على أن الجهاد والحكومة وسيلة و « اقامة الصلاة » هى الغاية (٢) ، ولندع القرآن يقرر ما هى الغاية وما هى الوسيلة ، اقرأوا معى

---

(١) « نظرة فاحصة على العبادات الاسلامية » الجزء الأول ص ١٣ .

(٢) ولا يمنع كون الصلاة والعبادات والأركان الاربعة مقاصد مطلوبة ، من ذكر أسرارها ، وحكمها وفوائدها فى الحياة الاجتماعية ، وقد سلك علماء الاسلام هذا المسلك فى كتبهم كالغزالى والخطابى وعز الدين بن عبد السلام والشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى ، وسار سيرتهم المؤلف فى كتابه « الأركان الاربعة فى الاسلام » .

الآيات التالية من سورة الحج :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا : ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » (١) .

شهادة أسوة الرسول والذوق النبوى :

من الحقائق التى لا تقبل الجدال والنقاش أن « الوسائل » لا تكون علاقة المرء معها الا علاقة عادية متجددة فى نطاق الضرورة، ومن الطبيعى أن يراها مرحلة انتقالية مؤقتة ، ومن هنالك فلا يفكر فى أن يتقدم فيها ويتفوق ، ويصل الى مدارج الكمال ، ولا تثور فى نفسه عاطفة التذوق والالتذاذ بها ، والاطمئنان اليها ، واذا فيعجز الانسان الذكى فى تحديد معانى الاحاديث — وادراك قيمتها وأهميتها — التى تصف كيفية صلاة النبى صلى الله عليه وسلم بما يلى : « ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من

---

(١) سورة الحج ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .

البكاء »(١) . و « جعلت قرة عينى فى الصلاة »(٢) . وقوله صلى الله عليه وسلم لسيدنا بلال رضى الله عنه . « يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها »(٣) . و « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر صلى »(٤) .

ولنظرة على القرآن الكريم تدل دلالة صارخة على أن العلاقة مع الله ، والعبودية ، والعبادات المعينة (الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج) مطلوبة من العبد راسا حيث يسأل عنها يوم القيامة ، ويستحق العقاب لو تركها أو أهمل فيها ، يقول القرآن الكريم وهو يصور الحوار مع الذين استحقوا النار : « ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض من الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى آتانا اليقين »(٥) .

ويقول فى موضع فيما يتصل بالكافرين :

« فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب الى أهله يتمطى »(٦) .

---

(١) رواه أبو داؤد والترمذى .
(٢) رواه النسائى .
(٣) ، (٤) رواه أبو داؤد
(٥) سورة المدثر ، الآيات : ٤٢ — ٤٧ .
(٦) سورة القيامة ، الآيات : ٣١ — ٣٣

هذه الآيات تدل صريح الدلالة على أن العبادات وأركان الدين ، هي حجر الزاوية في نظام الدين كله ، يؤاخذ عليها العبد ويحاسب يوم القيامة ، اما الأمور الأخرى — كاقامة الحكومة الالهية وتأسيس المدنية الاسلامية على أسس الخير والفلاح — فهي وسائل ، وفي درجة ثانوية في الدين .

التأثير النفسي لاعتبار العبادات والأركان وسائل :

ان الوسائل — كما أسلفت — لا يعنى بها الانسان الا بقدر الضرورة ، فلا يشغف بها ، ولا ينهمك فيها .. واذا كانت العبادات — حتى الصلوات الخمس المفروضة — مجرد وسائل وذرائع فما معنى — يا ترى — طول قيامه صلى الله عليه وسلم وطول صلاته في جوف الليل « حتى تورمت قدماه(١) » وما معنى ترغيبه في الاكثار من النوافل وتبشيره بأنها تقرب العبد الى ربه(٢) وتنويهه بأهمية انتظار الصلاة بعد الصلاة ، وتعبيره عن ذلك

---

(١) روى الشيخان والترمذي والنسائي عن المغيرة بن شعبة أنه « قام النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — حتى تورمت قدماه » .

(٢) اقرأ الحديث « لا يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل الخ » الذي رواه الشيخان .

بـ « الرباط »(١) وادراجه الرجل الذى « قلبه معلق بالمساجد »(٢) فى أولئك السعداء الذين « يظلهم الله فى ظله يوم لاظل الا ظله » وقوله عليه السلام : « عليك بكثرة السجود» (٣) وفوق ذلك كله وصف القرآن الكريم المؤمنين بالكلمات ذات الدلالات العميقة البارعة. « والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما » و « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » مما يدل على أن هذه العبادات ليست وسائل مجردة الى اقامة الحكومة الالهية ، والطاعة والتنظيم والحكم ، بل

---

(١) أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم! قال : اسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا الى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله : امام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : انى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، (متفق عليه) .

(٣) جاء مرويا عن ثوبان وأبى الدرداء رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عليك بكثرة السجود ، فانك لا تسجد لله سجدة الا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة » (رواه مسلم ، والترمذى ، وابن ماجة ، والنسائى ، وأحمد فى مسنده) .

انها غاية منشودة واعمال مقصـــودة بذاتهـــا ، وان كان لا بد من وصفها بالوسائل ، فانها وسائل التقرب الى الله والفوز برضاه .

ومن نتيجة هذا الأسلوب من التفكير انه يجعل المرء لا ينبعث فى نفسه الشعور بالصلة القلبية بالعبادات ، ولا يتحرك لانشـــاء الروح والكيفية الباطنية فيها ، ولا تثور فى قلبــه عاطفة الحصول على صفة الخشوع والخضوع ، والاخبات والاستحضار ، ودوام الذكر والاخـــلاص ، والايمان والاحتســـاب ، ولا يرى الحاجة الى هذه الكيفيات الباطنية والأخلاق الايمانية و « الاحسانية » ، ولا يحسب حسابا لقيمتها وغنائها ، فضلا عن أن يفكر فى الحصول عليها ، والتفوق فيها ، واحراز قصب السبق فى مجالهـــا ، وأن يبحث عن ائمـــة هـــذا الفن والاخصائيين فى هـــذا الطب ، فيستفيد من تجاربهم ، ويعمل بوصاياهم ونصائحهم الخاصة بهذا الموضـــوع :

وقد كانت شبه القـــارة الهندية فى القرون الأخيرة أكبـــر مركز للعارفين والربانيين الذين كانوا دعاة مخلصين الى انشاء الروح والحقيقة فى العبادات ، وشحن بطارية القلب بالاخبات والانابة ، وشفع الأعمـــال بالاخـــلاص والاحتســـاب ، وقـــد خـــرجوا فى الاصلاح والتزكية والاحسان ائمـــة ومحققين انتفعت بهم أنحـــاء

بعيدة من العالم الاسلامى ، وأقطار كانت مهد العلوم الاسلامية ومركزها .

والأستاذ المودودى نفسه يضطر أن يعدل — حينما يتعرض لهذا الموضوع — عن أسلوبه المعتاد المتاز بالجدية ، فينفث قلمه ما يختلف كل الاختلاف عن كتاباته الأخرى ، فحين يتحدث عن الجهود الاصلاحية والمآثر التجديدية التى قام بها الامام أحمد بن عبد الأحد السرهندى (المعروف بمجدد الألف الثانى) المتوفى ١٠٣٤هـ ، والامام أحمد بن عبد الرحيم ولى الله الدهلوى (م١٠٧٦هـ) وأتباعهما ومن خلفهما فى الدعوة والاصلاح والتجديد يقول عن « التصوف » الذي ظلوا يعضون عليه بالنواجذ طيلة حياتهم ويدعون اليه الناس :

« فكما أن الشيء الحلال مثل الماء يحرم على المريض اذا أضره ، فكذلك هذا « القالب » (١) ، وجب تركه — على رغم كونه مباحا — وذلك لأنه حبب عن طريقه الى المسلمين « الأفيون » فما أن يقترب اليه هؤلاء المرضى المصابون بالداء العضال ، الا ويتذكرون هذه الحبيبة التى تيمتهم ، والتى دامت تنومهم قرونا

---

(١) اشارة الى « التصوف » .

طويلة (١) .

أسطورة البطالة والاستسلام

والفرار عن معترك الحياة :

وبصرف النظر عن حقيقة « التصوف الاسلامى » ومدى اتصاله بالكتاب والسنة (٢) ، وأن هذا المصطلح الذى حدث وشاع فى القرن الثانى فما بعده ، قد جنى على حقيقته ومقاصده ، وأن الأصل هو التعبير القرآنى « التزكية » الذى ورد فى مقاصد البعثة ، فى سورة آل عمران ، وفى سورة الجمعة ، والتعبير المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو (الاحسان) الذى ورد فى الأحاديث الصحيحة ، والانكار على ما أحدثه المتأخرون الخاضعون لفلسفات العجم ، وبصرف النظر كذلك عما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع ، وما ذهب اليه شيخ الاسلام ابن تيمية من التحقيق والتنقيح ، وما جاء فى كتابه (مدارج السالكين) لتلميذه وحامل علومه العلامة الحافظ ابن قيم الجوزية ، فلا يتسع المجال فى هذه العجالة للحديث فى هذا الموضوع ، ولسنا فى موقف

---

(١) « التجديد واحياء الدين » ص ٧٣ — ٧٤ .

(٢) للاستاذ المودودى كلام جيد نوافقه عليه فى حقيقة التصوف الاسلامى ، والفرق بينه وبين الفقه ، راجع كتابه .. « مبادىء الاسلام » عنوان « التصوف » ص ١١٧ — ١١٩ ، الطبعة الثانية ، مكتبة الشباب المسلم .

الدفاع عن هذه الجماعة .

بصرف النظر عن كل ذلك ، نستعرض ما نسبه الاستاذ المودودى الى هذه الجماعة من البطالة ، والاستسلام ، والفرار عن معترك الحياة ، ونزنه فى ميزان العلم والتاريخ ، ونعرضه على محك التحقيق ، فان العلم أحق بالاحترام من الأشخاص والأفراد ، وقد ورد فى القرآن صريحا « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » (١) وسيكون البحث بحثا تاريخيا مجردا ، بعيدا عن كل عصبية ، ونزعة شخصية .

ان الاستاذ المودودى آمن كحقيقة بديهية ثابتة لا تقبل عنده جدالا ولا نقاشا : بأن « التصوف » عبارة عن البطالة والكسل والجمود ، والفرار عن معترك الحياة ، والانسحاب عن ميدان الكفاح والنضال ، والتراجع عن معركة الحق والباطل ، بل التفاهم مع القوى الباطلة وممالئتها فضلا عن الاستسلام والخضوع لها ، وكلاهما يستلزم احدهما الآخر ، لا يفترقان أبدا ...

---

(١) المائدة : ٨ .

يقول فى موضع :

« هل هناك دليل واقعى فى الكتابات الصوفية على أن هؤلاء الشيوخ — الذين تنمى اليهم هذه المناهج الصوفية — كانوا يضعون فى اعتبارهم « اقامة الدين » بأوسع معانيها ، وهل هناك دليل على انهم انما اتخذوا هذه المناهج من اجل تخريج الرجال لهذا الغرض ، وهل قام الرجال المتخرجون فيها — ولو مرة — بهذا العمل ؟ » (1) .

غيض من فيض :

واجابة على هذا التساؤل ، سوف لا أتوغل فى الثروة التاريخية الفنية المكثفة ، ولا أنتقى منها أسماء الكثرة الكاثرة من رجال الجهاد والكفاح ، والدعوة والعزيمة والاصلاح ، وقادة حركات الثورة والانقلاب ، الذين كانوا يجمعون بين السيف والمصحف ، والعقل والعاطفة ، وبين التسبيح فى المسجد والبيت فى ظلام الليل ، والتكبير فى ساحة الجهاد على صهوات الخيل ، ولا يهابون السجون والمعتقلات ، والمشانق والمحاكمات ، وقد جابهوا القوى الباطلة برجال أعدوهم اعدادا وأحسنوا تربيتهم ... بل نكتفى بعرض نموذجين من كتاب الاستاذ نفسه « التجديد واحياء الدين » وهما : الامام السيد أحمد بن عرفان

---

(1) « رسائل ومسائل » (بالأردية) الجزء الثانى ، ص ٦٠٢

الشهيد ، والشيخ اسماعيل بن عبد الغنى بن ولى الله الشـــهيد
(ش ١٢٤٦ هـ) اللذان قال فيهما : « ان هذين الشيخين قد غذيا
هؤلاء المرضى من جديد ذلك الغذاء الذى قد عهد انه يضر ضررا
مبيدا فى مثل هذا المرض » وأن « عملية البيعة كانت تصـــاحب
حركة السيد احمد الشهيد » ... يقول معترفا بتأثير السيد أحمد
الساحر المموس ، ودوره فى التغيير والانقلاب :

١ — « انه نهض بعبء اصلاح عامة الخلق دينا وخلقـــا
وسلوكا ، وحيثما بلغ تأثيره ، حدث تغير هائل فى الحياة جـــدد
ذكرى عهد الصحابة الكرام رضى الله عنهم .

٢ — انه أعد عدته للجهاد على نطاق واسع لم يكن سهلا
ميسورا فى اوائل القرن التاسع عشر فى بلد منحط كالهنـــد ،
تجلت فيه مواهبه التنظيمية النادرة ، وأوحت اليه ألمعيته البالغة
أن يتخذ المنطقة الشمالية الغربية من الهند منطلق عمليته ، لأنها
كانت بدون شك أكثر ما تكون ملاءمة لهذا العمل باســـتراتيجيتها
وموقعها الجغرافى والسياسى ، وتقيد هذا الجهـــاد بصميم تلك
المبـــادىء الخلقية والقوانين الحربية التى يتميز بها المجـــاهد فى
سبيل الله عن المحارب المادى ، وبذلك فهو مثل امام العـــالم
من جديد روح الاسلام الحقيقى ، ولم يكن يبتغى من وراء جهـــاده

عرضا من الدنيا او تشييد ملك ودولة ، أو انتصار لعصبية قومية او غرضا من الأغراض الدنيوية ، بل كان جهاده خالصا لوجه الله الكريم، **ولم يكن يهدف الا الى انقاذ خلق الله من حكم الجاهلية وتأسيس نظام الحكم الذى يرضاه الخالق ومالك الملك ،** وبدأ الحرب من أجل هذا الغرض على الطريقة الاسلامية ، فدعا أولا الى الاسلام أو الجزية ، ثم باشر الحرب بعد اتمام الحجة ، والتزم التزاما دقيقا بالقوانين الحربية المتحضرة التى علمها الاسلام ، لم يتعرض لظلم أو وحشية أو اضطهاد ، كلما دخل قرية دخلها كمصلح لا كمفسد ، ولم تكن جنوده تحمل معها خمرا، ولم تكن تصاحبها الجوقة الموسيقية ، ولا طابور المومسات ، ولم يكن معسكره مصائد الفجرة ، ولم يحدث أن مر رجال جنده بمنطقة فأصبح أهلها يشكون الغائلة على مالهم وحرمهم وحقيقتهم ، كانت رجاله رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار ، يخشون الله ويخافون حساب الآخرة ، قائمين على الحق فى كل حال ، سواء أجر عليهم القيام عليه خسارة أو جلب لهم ربحا ، لم يتخاذلوا اذا انهزموا ، ولم يتجبروا ويتكبروا اذا انتصروا .

٣ — « والفرصة القليلة التى اتيحت له للحكم فى منطقة صغيرة ، اقام فيها نفس الحكومة التى يقال لها « الخلافة على منهاج النبوة » فامارة ساذجة متقشفة ، ومساواة وشورى ،

وعدل وانصاف ، وتنفيذ للحدود الشرعية ، وأخذ للمال بالحق ، وانفاقه بالحق ، وانتصار للمظلوم وان ضعف ، وانتقام من الظالم وان قوى ، واستشعار لخوف الله فى الحكم ، وادارة السياسة على أساس الأخلاق الصالحة ، وجملة القول انه مثل من جديد ذلك الحكم الذى حكمه — فى زمن بعيد — الصديق والفاروق رضى الله عنهما » (١) .

أفلم تكن جهود الشهيدين وجهادهما فى سبيل « اقامة الدين » ؟ :

وها هنا يمكن أن نتساءل — بكل أدب واحترام — : أفلم يكن الهدف الذى من أجله قام السيد احمد وصاحبه العلامة اسماعيل ابن عبد الغنى الشهيدان بهذه المحاولات كلها ، أو لم يكن ما أحرزه من نجاح فى اصلاح الأخلاق والسلوك ، واحداث التغير الهائل فى الحياة ، واعداد الرجال للجهاد ، والقيام بالجهاد وفق المبادىء الاسلامية الأصيلة ، وتأسيس نظام الحكم المرضى لدى الخالق مالك الملك ، واقامة الحكومة التى كانت على نموذج الخلافة فى عصر الراشدين ، أفلم يكن ذلك كله محاولة « إقامة الدين »(٢) ؟ وهل قام بهذه المآثر الا اولئك الذين كانوا أئمة

---

(١) « التجديد واحياء الدين » (بالأردية) ص ٧٠ — ٧١ .
(٢) وأرجو القاء نظرة ممعنة على السطور المخطوط عليها التى لا تشرح الا « اقامة الدين » .

فن التزكية والاحسان يدعون الى الربانية الصافية ، والتربية الروحية البعيدة عن كل بدعة وخرافة .

وذلك طبيعى ومنطقى تماما ، وما يقرره علم النفس والتربية فانه لا يضطلع بهذا « العمل الجليل » الا ذلك الذى تحرر كليا من عبادة النفس والهوى ، وتخلص تماما من براثن الأمراض الجاهلية كـ « حب الدنيا » و « حب الحياة » و « كراهية الموت » تلك التى تشير اليها الآية الكريمة « يود أحدهم لو يعمر الف سنة » ، وأصبح حنين وشوق الى لقاء الله والفوز برضاه ، والوجد والهيام ، والحب والحنان ، حتى كأنه يقول بلسان حاله :

غـدا الاقى الأحبـة   محمـدا وحـزبه (١)

وأرى جديرا أن انقل بهذه المناسبة ما سبق لى أن قلتـه فى مقال لى فى معرض الحديث عن حب هؤلاء الربانيين وشوقهم الجامح للجهاد والشهادة :

« الحقيقة أن هذه المجاهدات والرياضات ، وتزكية النفس والصلة بالله ، تنشىء فى الانسان حالة عجيبة من الشوق والوجد، والحب والحنان ، تتغلغل فى احشائه ، وتستقر فى أعماقه ، حتى

---

(١) تلك الكلمات قالها سيدنا بلال رضى الله عنه وهو فى حالة الاحتضار يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وقد رويت أشباهها عن كثير من العارفين وعباد الله الصالحين .

تراه ينشد بلسان حاله ، ويقول :

« انى لا أملك شيئا أفديك به ، الا هذه الحياة التى أعرتنى اياها ، فهى منك ولك ، ومن فيضك وفضلك » .

فنهاية المطاف فى هذه الرحلة الروحية والسلوك الطويل ، هى حب الشهادة ، والغاية الأخيرة من هذه المجاهدة والرياضة هى الجهاد .

ان اليقين والحب هما جناحان لصقر الجهاد والاجتهاد يحلق بهما فى السماء ، انه لا يستطيع أحد أن يترفع عن أهواء نفسه ، وعاداته ومألوفاته ، ومصالحه ومنافعه ، وأغراضه وشهواته ، ولا يمكن لأحد أن يترفع عن المستوى السافل الذى أشار الله اليه بقوله : « ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه » الا اذا تجلى فيه اليقين والحب ، فأصبح كالبرق الخاطف فى الليل البهيم ، أو كالشعلة المتأججة التى لا تخمد نارها ولا يهدأ أوارها .

ان تجارب الحياة الطويلة تدلنا على أن المعلومات والدراسات ، أو القوانين والأشكال الفارغة لا تستطيع أن تثير فى الانسان أدنى رغبة فى الايثار والتضحية ، فضلا عن الفداء بمهجته وروحه ، انه لا بد له من صلة عميقة راسخة ، ولذة روحية ، والحرص على فائدة معنوية تصغر فى عينيه الفوائد المادية العاجلة ولعل الشاعر أنشد فى هذا الحال ، أو صور هذا الموقف اذ قال :

فحيهلا ان كنت ذاهمة فقد حدى بك حادى الشوق فاطو المراحلا
وقل لمنادى حبهم ورضاهم اذا ما دعا ، لبيك الفا كواملا(١)

وذاك هو السر فيما نراه من وجود شخصية فذة قوية ، على راس كل حركة للجهاد والكفاح ، نفخت فى المجاهدين روح الحماسة واليقين ، وحملت هذه الشرارة الى صدور المؤمنين الآخرين ، حتى شقت عليهم حياة الهدوء والنعيم والترف ، واصبحوا لا يطيقونها ، وهانت عليهم حياة الشهادة والجهاد ، والبطولة والتضحية ، وعزت عليهم الحياة كما عز على غيرهم الموت ، وذلك هو النموذج الكريم المفقود ، والامام المنشود المقصود الذى أشار اليه « اقبال » فقال :

« ان الامام الحق وامام العصر ، هو من يبعث فيك المقت والكراهة للحاضر والموجود ، يريك وجه الحبيب فى مرآة الموت ، فينغص عليك الحياة ، ويبعث فيك الشعور بالخسارة ، فيبعثك بعثا جديدا ويسن حديدك بالفقر ، فتصبح سيفا بتارا لا يبقى ولا يذر »(٢)

---

(١) من أبيات وردت فى كتاب زاد المعاد لابن القيم فى فصل الجهاد .
(٢) من مقال « بطولة وكفاح ، لا بطالة ولا استسلام » المعرب من الأردية بقلم الاستاذ محمد الحسنى ، المتدرج فى كتاب « ربانية ، لا رهبانية » .

على رأس كل حركة الجهاد والتضحية

شخصية روحيــة قــوية :

وليقدم أحد ازاء ذلك مثالا واحدا لمحاولات « اقامة الدين » تحقق على يد شخصية بعيدة عن الاعتناء بالباطن وتزكيـة النفس والصلةالعميقة بالله بل متنكرة لكل ذلك ومعارضة اياه ، وها هو ذا تاريخ الاسلام والمسلمين الماضى بين أيدينا نعرفه نحن والأسـتاذ المودودى وكثير وكثير من رجال العلم والثقـافة والدراســة ، فليدلنا أحد على حركة جهـاد وكفاح وتجـديد واصـلاح ، كان قائدها وليد مجرد ذكائه ودراسته ، ومعلوماته ومطالعته ، وتأمله وامعانه ، ما « مسته » تربية دينية روحيــة ، ولا تزكية ربانية قوية(١) .

وعلى العكس من ذلك نـرى أن من قاد هذه الأمـة فى أشد ساعاتها وأحرج مواقفها من الاحتضار والانهيار ، وحينمـا تغلبت عليها الأوضاع الفاسدة ، أو دهمتها الليالى القاتمة ، أو تداعت عليها الأمم ، وبدا التغيير محالا ، هم رجال الحب واليقين ،

---

(١) ويمكن تسمية بعض المصلحين الجانبيين الذين مثلوا دورا لا يستهان بقيمته فيما يتصـل بالدعوة والتبليغ واصـلاح العقائد والكفاح ، والتجديد الاسلامى ، ويستدل بذلك على عدم عموم هذه الكلية واطلاقهـا ، ولكنهم كانوا يتمتعـون بروح « الاحسـان » والصلة بالله وتزكيـة النفس ، وذلك هـو المطلوب ، ليس المنهج الخاص « الروتينى » لتحصيل هذه النتيجة ، فتبقى الكليـة على عمومها واطلاقها .

إبليس غير(٢) .

« لما هجم التتار على العالم الاسلامى ، وداسوه تحت أقدامهم ، وتقلص ظل الخلافة العباسية ، وقضى على حكومة «خوارزم شاه» التى كانت الحكومة الاسلامية الوحيدة فى ذلك العصر ، استولى اليأس القاتل على العالم الاسلامى كله ، وعلموا أن الانتصار عليهم ضرب من المحال ، وترددت على ألسنة الناس « اذا قيل لك ان التتر انهزموا فلا تصدق » هنالك برز فى الميدان بعض رجال العزيمة وأصحاب القلوب ، ولم ييأسوا من هذه الأوضاع ، واستمروا فى مهمتهم وجهادهم ، حتى أسلم بعض ملوك التتار على أيديهم ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

ولما اتجهت حكومة « أكبر » — فى الهند الى اللادينية والالحاد اتجاها سافرا ، وأراد « أكبر » — وكان من أكبر الملوك الذين عرفتهم الهند ، وأقواهم — أن يطمس على معالم الاسلام وملامحه الواضحة وميزاته البارزة ، بجميع ما عنده من وسائل ومواهب وطاقات ، وقد اجتمع عنده جمع من الأذكياء وذوى الكفاءات النادرة يعينونه على هذا الباطل ، ولم يكن هناك ضعف أو هرم فى الدولة يشير الى زوالها ، أو يدل على

---

(١) ومن شاء فليقرأ كتابنا « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام ليدرك صدق ما نقول .

ثورة يتأجج أوارها ، وكان العلم والمنطق والقياس الظاهر ، لم يكن يصدق أنه سيقع هناك تغيير سار أو تحول بارز فى الحكومة والشعب .

هنالك قيض الله أحد عباده للاصلاح والتجديد ، فحمل راية الثورة بمفرده ، وبدأ فى ثورة داخلية بقوة ايمانه ويقينه ، وعزمه وتوكله ، وروحانيته واخلاصه ، حتى أصبح كل وارث للحكم المغولى أحسن من سابقه ، ثم تربع أخيرا على هذا العرش السلطان محى الدين « أورنك زيب عالمكير » الملك الفاضل الصالح المسلم الغيور الذى يندر نظيره فى تاريخ الحكومات الاسلامية ، وكان رائد هذه الثورة المباركة ، امام الطريقة المجددية الشيخ أحمد السرهندى »(١) .

وكذلك نرى أن الذين هبوا لمقاومة القوى الاستعمارية منذ القرن التاسع عشر على الأقل الى منتصف القرن العشرين ، وأشعلوا فى القلوب شعلة الجهاد ، ونفخوا فى المجتمع الاسلامى روح الكفاح والثورة ، والشجاعة والاستماتة ، والحرية والاستقلال ، والايثار والتضحية ، والحماسة واليقين ، والتفانى

---

(١) العبارة التى بين الهلالين مأخوذة من كتاب « ربانية لا رهبانية » فصل « بطولة وكفاح ، لا بطالة واستسلام » .

والمغامرة ، واعجزوا القوى الغربية الكبرى – بعدد ضـئيل من رجالهم وعتاد قليل من امكانياتهم – وسدوا عليها الطرق ، وضيقوا عليها الخناق ، وأنقذوا أوطانهم من أن تظل لقمة سائغة وفريسة طيعة لها لمدة لا يعلمها الا الله ، كلهم كانوا من طراز هؤلاء الربانيين الذين جمعوا بين مجاهدة النفس وجهاد الأعداء ، وكما جاء فى وصف سلفهم وسابقيهم « بالليل رهبان وبالنهار فرسان » .

الأمير عبد القادر الجزائرى :

« ومنهم الأمير عبد القادر الجزائرى الذى رفع راية الجهاد فى الجزائر مقابل الفرنسيين ، وأطلق الشرارة الأولى فيها ولم يهدأ له بال من عام ١٨٣٢ الى ١٨٣٧ م حتى أقض مضاجع الفرنسيين ، وقد أثنى مؤرخو الغرب على شجاعته ، وعدله ورفقه ، وعلمه وفضله ، يتحدث عنه الأمير شكيب أرسلان ، فيقول :

« وكان المرحوم الأمير عبد القادر متضلعا من العلم والأدب ، سامى الفكر ، راسخ القدم فى التصوف ، لا يكتفى به نظرا حتى يمارسه عملا ، ولا يحن اليه شوقا ، حتى يعـرفه ذوقا ، ولـه فى التصوف كتاب ، سماه « المواقف » فهو فى هذا المشرب من الأفراد الأفذاذ ، ربما لا يوجد نظيره فى المتأخرين »(١) .

---

(١) « حاضر العالم الاسلامى » ج ٢ ، ص ١٧٣ .

ويذكر كيف كان يقضى وقته ، وكيف كانت أيامه فى دمشق فيقول :

« وكان كل يوم يقوم الفجر ، ويصلى الصبح فى مسجد قريب من داره فى محلة العمارة لا يتخلف عن ذلك الا لمرض ، وكان يتهجد الليل ويمارس فى رمضان الرياضة على طريقة الصوفية ، وما زال مثالا للبر والتقوى والأخلاق الفاضلة ، الى أن توفى رحمه الله سنة ١٨٨٣ م »(١) .

شيوخ الطريقة النقشبندية فى ساحة الجهاد والاصلاح :

وفى عام ١٨١٣ م ، لما هجم الروس على طاغستان(٢) ، واستولوا عليها ، لم يقم فى وجههم الا هؤلاء الشيوخ النقشبنديون ، وحملوا راية الجهاد ، وطالبوا بأن يقضى فى قضايا المسلمين بالشرع الاسلامى ، ويكونوا احرارا فى تطبيق الشريعة فى معاملاتهم .

يقول المرحوم الأمير شكيب ارسلان :

« وتولى كبر الثورة علماؤهم وشيوخ الطريقة النقشبندية

---

(١) « حاضر العالم الاسلامى » ج ٢ ، ص ١٧٣ .

(٢) طاغستان تقع على الساحل الغربى من بحر الخزر ، اكثر أهلها مسلمون اذا ضمت اليها القفقاز الشمالى يتراوح عدد المسلمين بين المليونين وثلاثة ملايين نسمة .

المنتشرة هنـــاك ، وكأنهم سبقوا سائر المسلمين الى معرفة كون ضررهم هو من أمرائهم الذين أكثرهم يبيعون حقوق الأمة بلقب « ملك » أو « أمير » وتبـــوء كرسى وسرير ، ورفـــع عـــلم كاذب ولذة فارغة باعطاء أوسمة ومـــراتب ، فثاروا منـــذ ذلك الوقت على الأمراء وعلى الروسية حاميتهم ، وطلبوا ان تكون المعاملات وفقا لأصول الشريعة ، لا للعادات القديمة الباقيـــة من جاهليـــة أولئك الأقوام ، وكان زعيم تلك الحركة « غازى محمـــد » الذى يلقبه الروس بـــ « قاضى ملا » وكان من العلمـــــاء المتبحرين فى العلوم العربية ، وله تأليف فى وجوب نبذ تلك العادات القديمـــة المخالفة للشرع ، اسمه : « اقامة البـــرهان على ارتداد عرفاء طاغستان » .

وفى عام ١٨٣٢ م اســـتشهد الغازى محمد ، وحمـــل لواءه خليفته « حمزه بك » وجاء بعده الشيخ « شامل » وتســـلم زمام القيادة ، وكان كما يقول المرحوم الأمير شكيب : « صورة للأمير عبد القادر الجزائرى ، وكان قد انتقل من المشيخة الى الامارة » .

واستمر الشيخ شامل فى جهاده ضد روسيا نحو ٣٥ سنة ، وانتصر عليهم فى عدة معـــارك انتصـــارا باهرا ، وكان الروس قد أخذهم الرعب بشجاعته وشهامته وانســـحبوا له عن بلادهم

باستثناء بعض الولايات ، وقد فتح الشيخ جميع حصونهم وقلاعهم فى عام ١٨٤٣ ، ١٨٤٤ م ، ونال غنيمة كبيرة من الأسلحة والذخيرة ، وهنالك ركزت الحكومة الروسية كل عنايتها على طاغستان ، وزحفت اليها بخيلها ورجلها ، وأنشد الشعراء قصائد تثير النخوة ، وسيقت اليها العساكر اثر العساكر ، ولكن الشيخ شامل استمر فى المقاومة والجهاد عشر سنوات اخرى ، ولم يضع سلاحه الا فى عام ١٨٥٩ م .

السنوسية ، وجهادها الأكبر فى افريقيا :

وأروع مثال لهذا الجمع بين المجاهدة والجهاد ، سيدى أحمد الشريف السنوسى ، ولقد قدر الايطاليون أنهم سيفتحون برقة وطرابلس فى خمسة عشر يوما ، ولكن القواد الانجليز الذين مارسوا الحرب فى المستعمرات ، وفى الصحارى ، عارضوا هذا الرأى وقالوا : انه يدل على عدم تجربتهم فى هذا المجال ، فقد يمكن أن تستغرق هذه الحروب ثلاثة أشهر ، فماذا حدث ؟ لقد استمر القتال الى ١٣ سنة كاملة ، ولم يستطع الايطاليون فى هذه المدة الطويلة أن يخمدوا نار الثورة فيها ، والفضل فى ذلك كله يرجع الى الفقراء السنوسيين ، وامامهم وشيخ طريقتهم : سيدى أحمد الشريف ، وقد صدق الأمير شكيب أرسلان اذ قال : « ان بطولة السنوسيين دلت على أن الطريقة السنوسية هى عبارة عن

حكومة بأسرها ، بل وهنا عدة حكومات لا تملك من الوسائل ما يملكها رجال هذه الطريقة .

ويصف الأمير شكيب ، سيدى أحمد الشريف ، فيقول :

« وقد لحظت منه صبرا ، قل أن يوجد فى غيره من الرجال ، وعزما شديدا تلوح سيماؤه على وجهه ، فبينما هو فى تقواه من الأبدال ، اذا هو فى شجاعته من الأبطال » .

السيد مهدى السنوسى وعنايته الفائقة بالفتوة والفروسية :

ان الصور الرائعة التى عرضها الأمير شكيب للزاوية السنوسية فى صحراء افريقيا الكبرى ، صورة جذابة مثيرة ، فيها دروس وعبر ، وفيها مسحة من جمال ساحر اخاذ ، ان هذه الزاوية كانت تقع فى « واحة الكفرة » وكان يديرها عم سيدى أحمد الشريف وشيخه ، السيد المهدى ، وكانت أكبر مركز روحى ومخيم حربى — بلا نزاع — فى افريقيا .

يقول الأمير شكيب رحمه الله :

« فقد كان السيد المهدى يهدى هدى الصحابة والتابعين ، لا يقتنع بالعبادة دون العمل ، ويعلم أن أحكام القرآن محتاجة الى السلطان ، فكان يحث اخوانه ومريديه دائما على الفراسة

والرماية ، ويبث فيهم روح الأنفة والنشاط ، ويحملهم على الطراد والجلاد ، ويعظم فى أعينهم فضيلة الجهاد ، وقد أثمر غراس وعظه فى مواقع كثيرة ، لا سيما فى الحرب الطرابلسية التى اثبت بها السنوسية أن لديهم قوة مادية تضارع قوة الدول الكبرى ، وتضارع أعظمها جبروتا وكبرا ، وليست الحرب الطرابلسية وحدها هى التى كانت مظهر شجاعة السنوسيين ، بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيس فى مملكة « كانم » ومملكة « واداى » من السودان ، استمرت من سنة ١٣١٩ الى سنة ١٣٣٢ هجرية .

« وحدثنى السيد أحمد الشريف أن عمه المهدى كان عنده خمسون بندقية خاصة به وكان يتعهدها بالمسح والتنظيف بيده ، لا يرضى أن يمسحها له أحد من أتباعه المعدودين بالمئات ، قصدا وعمدا ، ليقتدى به الناس ، ويحتفلوا بأمر الجهاد وعدته وعتاده : وكان نهار الجمعة يوما خاصا بالتمرينات الحربية من طراد ورماية ، وما أشبه ذلك ، فكان يجلس السيد فى مرقب عال ، والفرسان تنقسم صفين ، ويبدأ الطراد ، فلا ينتهى الا فى آخر النهار ، وأحيانا يضعون هدفا ، ويأخذون بالرماية ، حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرسانا ورماة ، لكثرة ما كان يأخذهم بهذا المران ، وكان يجيز الذين يسبقون فى الطراد أو يقرطسون فى الرمى ، بجوائز ذات قيمة ، ترغيبا لهم فى فضائل

الحرب ، كما انه كان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصا عندهم للشغل بالأيدى ، فيتركون فى ذلك اليوم الدروس كلها ويشتغلون بأنواع المهن ، من بناء ، ونجارة ، وحدادة ، ونساجة ، وصحافة ، وغير ذلك ، لا تجد منهم ذلك اليوم الا عاملا بيده ، والسيد المهدى نفسه يعمل بيده لا يفتر ، حتى ينبه فيهم روح النشاط للعمل .

وكان السيد المهدى ، وابوه من قبله ، يهتمان جد الاهتمام بالزراعة والغرس ، تستدل على ذلك من الزوايا التى شادوها ، والجنان التى نسقوها بجوارها ، فلا تجد زاوية الا لها بستان أو بستانان ، وكانوا يستجلبون أصناف الأشجار الغريبة الى بلادهم من أقاصى البلدان . وقد دخلوا فى الكفرة ، وجغبوب ، زراعات وأغراسا لم يكن لأحد هناك عهد بها ، وكان بعض الطلبة يلتمسون من السيد محمد السنوسى أن يعلمهم الكيمياء ، فيقول لهم : « الكيمياء تحت سكة المحراث » واحيانا يقول لهم : « الكيمياء هى كد اليمين وعرق الجبين » وكان يشوق الطلبة والمريدين الى القيام على الحرف والصناعات ، ويقول لهم جملا تطيب خواطرهم وتزيد رغبتهم فى حرفهم ، حتى لا يزدروا بها أو يظنوا أن طبقتهم هى أدنى من طبقة العلماء ، فكان يقول لهم : « يكفيكم من الدين حسن النية ، والقيام بالفرائض الشرعية ، وليس غيركم بأفضل منكم » وأحيانا يدمج نفسه بين أهل الحرف ، ويقول لهم ،

وهو يشتغل معهم : « يظن أهل الوريقات والسبيحات أنهم يسبقوننا عند الله ، لا والله ما يسبقوننا »(١) .

الشيخ حسن البنا ، ونصيب التربية الروحية في تكوينه ، وفي تكوين حركته الكبرى :

أما الحركات الاسلامية المعاصرة ، فقد برزت فيها حركة « الاخوان المسلمين » ، وهى أعظمها تنظيما وقوة ، وهى الحركة التى حملت راية الاصلاح والجهاد فى الزمن الأخير ، ودعت الى العودة للاسلام من جديد فى العالم العربى ، وأكبر ميزاتها أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالحياة ، ولها تأثير عميق بارز ملموس فى الحياة العامة فى الأقطار العربية كلها ، وكانت شخصية مؤسسها وقائدها الأول شخصية قوية ساحرة تجمع بين عدة جوانب ، انه كان عملا متواصلا وسعيا دائبا ، وهمة لا يتخللها فتور ، وأملا لا يرتقى اليه يأس ، جنديا ساهرا على الثغر لا يناله التعب والعناء، وكان وراء كل هذه الخصائص والسمات عامل قوى لا يستهان به ، وهى تربيته الروحية ، وسلوكه ورياضته ، انه كان فى أول أمره — كما صرح بنفسه — فى الطريقة الحصافية الشاذلية ، وكان قد مارس أشغالها وأذكارها ، وداوم عليها مدة(١) ، وقد حدثنى كبار رجاله

---

(١) حاضر العالم الاسلامى ج ٢ ص ١٦٣ — ١٦٤ .
(٢) « مذكرات الدعوة والداعية بقلم الامام الشهيد الشيخ حسن البنا . أنظر الطريقة الحصافية » .

وخواص أصحابه أنه بقى متمسكا بهذه الأشغال والأوراد الى آخر عهده ، وفى زحمة أعماله ، وقد تحدث عن حركته فى المؤتمر الخامس المنعقد فى ١٣٥٧ هـ ، وبين خصائصها ، فقال : « دعوة سلفية ، وطريقة سنية ، وحقيقة صوفية ، وهيئة سياسية،وجماعة رياضية،ورابطة علمية ثقافية ، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية »(١) .

علماء الهند وشيوخها فى ساحة الحرب

وميدان الاصلاح والكفاح :

أما فى الهند فترى هناك مزجا غريبا ، واجتماعا نادرا من هذه الربانية الاسلامية ، والقيادة الجهادية ، يقل نظيره فى العالم الاسلامى ، أما السيد أحمد الشهيد وحركته ورجاله ، فحدث عن البحر ولا حرج(٢) ، فقد بلغ جمعه العجيب بين هذا

---

(١) رسالة المؤتمر الخامس : ١٨ — ١٩ ، ويراجع للتفصيل ولمعرفة تكون شخصية الشهيد الخاص كتاب « التربية الاسلامية ومدرسة حسن البنا » القيم ، للدكتور يوسف القرضاوى ، طبع مكتبة وهبه .

(٢) ومن أراد التفصيل فعليه بكتبنا « اذا هبت ريح الايمان » و « الامام الذى لم يوف حقه من الانصاف والاعتراف » وسيرة « سيد أحمد شهيد » (باللغة الأردية) و « سيد أحمد الشهيد » باللغة الانجليزية بقلم الأستاذ محى الدين عضو المجمع الاسلامى العلمى بلكهنؤ ، و « سيد أحمد شهيد » باللغة الأردية بقلم الكاتب السلفى الكبير المرحوم غلام رسول مهر .

وذاك ، وتفوقه فى كلا الجانبين ألى حد التواتر ، وأصبح من المسلمات فى هذه البلاد ، واذا أطلعنا على أحواله وعلى أحوال أصحابه وعلى تاريخهم ، علمنا أنه كان نفحة من بقايا النفحات فى القرن الأول ، هبت فى القرن الثالث عشر وأحيت الأرض بعد موتها ، وبرهنت على أن الايمان والتوحيد والصلة الصحيحة بالله ، والتربية والسلوك على منهاج النبوة ، لا يزال يصنع العجائب ، وأن التضحية والايثار والفداء من غير روحانية صافية مشرقة ، وعاطفة واصلاح قوية راسخة ، وحلم لا يتحقق ، وغاية لا تنال .

وكان من أتباعه وخلفائه أمثال السيد نصير الدين ، ومولانا ولاية على العظيم آبادى ، على قدمه من هذا الجمع النادر العجيب ، وتبعهم مولانا يحيى على ، ومولانا أحمد الله الصادقبورى ، ومولانا محمد جعفر التهانيسرى ، ان أحاديث جهادهم ومحنتهم ، وصبرهم على المكروه ، واحتمالهم الشدائد تذكرنا بمحنة الامام أحمد بن حنبل رحمه الله .

وقد استمر هؤلاء الشيوخ من بعدهم فى الجهاد فى سبيل الله ، فرأينا الشيخ الكبير الحاج امداد الله المهاجر المكى ، والشيخ الحافظ ضامن الشهيد ، والشيخ محمد قاسم النانوتوى — مؤسس دار العلوم ديوبند — ومولانا رشيد أحمد الكنكوهى ، فى ساحة

« شاملى »(١) يقاتلون الانجليز ، ويستشهد الشيخ ضامن فى ساحة الجهاد ، ويضطر الشيخ امداد الله الى الهجرة ، ويضطر الشيخ النانوتوى والشيخ رشيد أحمد الكنكوهى الى التستر والخفاء مدة من الزمن ، وكان الشيخ أحمد الله شاه ، والشيخ لياقت على من المشايخ الكبار الذين قادوا الجيوش لقتال الانجليز فى ثورة ١٨٥٨ م الكبرى ، وتولوا كبرها ، واستشهد بعضهم وقتل بعضهم شنقا .

ثم جاء بعدهم الشيخ محمود حسن الديوبندى — الذى لقب بحق « شيخ الهند » — وأعد عدته لجهاد الانجليز ، وأراد انشاء حكومة مستقلة فى الهند ، فيها الأمر والنهى للمسلمين ، ودفعه طموحه وهمته الى الاتصال بتركيا ، والانسجام معها على خط الثورة والجهاد ، ان الرسائل الحريرية ، والاجتماع بأنور باشا ، واعتقاله فى جزيرة « مالطة » كل ذلك يدل على علو همته ونشاطه الدائب المستمر .. وكان على قدمه تلميذه النجيب الشيخ المجاهد حسين أحمد المدنى رحمه الله ، الذى أبلى بلاءا حسنا فى قيادة الثورة على الانجليز وحركة الاستقلال فى الهند ، وصدق الله العظيم : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم

---

(١) ترية جامعة فى مديرية « مظفرنكر » فيما بين دهلى و « سهارنفور » فى ولاية « أترابراديش » .

من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا »(١) .

التاريخ يحكم حكما حاسما :

ان التاريخ فى الحقيقة موضوع واقعى حساس رقيق الشعور ، انه لا يؤمن بالحديث المرجم ، أو البت والابرام اللذين لا يستندان الى شهادة ووثائق تاريخية ، وأرقام واعداد صحيحة دقيقة ، انه — لا يحابى انسانا ولا يمتنع من اصدار حكمه الحر الجرىء الصريح ، لأن المحكوم عليه كاتب كبير ، أو داعية شهير .

واجب « اقامة الدين » فى ضوء الشريعة والتاريخ :

ولا نجد هناك خلافا — فيما أعلم — فيما بين علماء الاسلام ، فيما يتصل بالسعى وراء الحصول على سلطة وقوة تمكنان من تطبيق حاكمية الله على البشر تطبيقا عمليا ، وتنفيذ احكامه وحدوده فى المجتمع البشرى ، حتى لا تعود هناك قوة أو سلطة أو نظام أو طاعة وحكومة معارضة توقع الناس فى صراع وفتنة تشير اليها الآية الكريمة :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »(٢)

كما يجب الحصول على قوة ومكانة تملك بها الجماعة المسلمة

---

(١) العبارة التى بين القوسين منقولة من فصل « بطولة وكفاح لا بطالة واستسلام فى كتابنا « ربانية لا رهبانية » .

(٢) سورة الأنفال : ٣٩

القيام بالأمر والنهى ، ولا تكتفى بمجرد الدعوة اللسانية والترغيب البيانى فحسب ، ولذلك آثر القرآن ولسان الوحى التعبير بكلمة « الأمر » و « النهى » ــ على سعة اللغة العربية وغناها ــ وهما تتطلبان شيئا من القوة والعلو والغلبة حتى يكون الانسان فى موقف الآمر والناهى .

قال الله تعالى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله »(١) .

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر »(٢) .

والحصول على هذه السلطة والقوة ، والجد والاجتهاد فى سبيله ، مطلوب من المسلمين بالآيات القرآنية والنصوص القطعية ، ولا يجوز الاهمال فيه والتقصير عنه فى حال من الأحوال ،

وقد زخر القرآن والحديث بالتحذير من النتائج الوخيمة المشئومة المترتبة على ترك هذا الركن الاسلامى العظيم ، فى صورة انطماس معالم الدين وزوال شعائره ، وذل المسلمين وهوانهم

---

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة آل عمران : ١٠٤

وعبوديتهم ، والغاء الحدود الالهية والأحكام الشرعية ، والفوضى والاضطراب فى الحياة ، والحرمان من النصرة الالهية والسعادة الدينية والدنيوية ، ومن أجل ذلك أولت الشريعة الاسلامية اقامة نظام الامارة والخلافة أهمية بالغة حتى جعلت الحياة بدونها حياة « جاهلية » وجعلت الموت فى هذا الوضع « ميتة جاهلية »، ولأمر ما عنى الصحابة رضى الله عنهم بأمر الخلافة واختيار خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وامير للمسلمين يجمع شملهم ويتولى أمورهم ، على اثر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقدموه على كل أمر ، وفى سبيل الأخذ بها الى النهج الصحيح واعادتها الى سيرتها الأولى ، جاهد سيدنا على كرم الله وجهه جهاده الشاق الطويل ، وفى سبيل اعادتها الى نصابها قاتل حسين بن على حاكم المسلمين يزيد بن معاوية بن أبى سفيان — رضى الله عنهما — القتال الذى استشهد فيه ، وما زال فقهاء الاسلام وأولوا العزم من العلماء والمصلحين يرفعون راية الجهاد ويقودون الجيوش ، ويبذلون ما عندهم من نفس ونفيس ، فى سبيل الجهاد ، واقامة الحكم الاسلامى ، وقد تغافل عنه العالم الاسلامى فأصبح اليوم ذليلا مهانا لا قيمة له ولا رهبة ، وأصبح قصعة تداعت عليها الأكلة — من الحكومات والشعوب — .

لكن ذلك على عظم خطره وجلالة شأنه لا يخرج من أن يكون

وسيلة عظيمة ، لغاية عظيمة يعرفه الذين درسوا تعاليم الكتاب والسنة دراسة دقيقة عميقة ، وامتازوا بالرسوخ فى العلم والاطلاع الواسع الدقيق على السيرة النبوية وعلى أخبار الصحابة ، وكان « ذوقهم العلمى » ومنهجهم الفكرى ، وأسلوبهم الدعوى كله متبثقا من صميم التعاليم النبوية ، ولم يكن صدى أو رد فعل لما كان يموج به عصرهم من حركات هدامة ، أو دعوات مضللة ، أو جاهلية عصرية .

ويجدر بى أن أنقل هنا ما قلته فى الترجمة الأردية لكتابنا « النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن » بمناسبة الحديث عن هذه الظلال التى تحدثها « ردود الفعل والتفاعل فى كتابات بعض الكتاب الاسلاميين المعاصرين » .

« ولك أن ترى ظلال ذلك التفاعل — ولا يمكن أن تراه فى بعض الأحيان بدون استخدام المكبرة — فى كتابات كثير من الكتاب والدعاة الاسلاميين المعاصرين ، فحينما لاحظوا من نجاح باهر مطرد للفلسفات الغربية والسيطرة السياسية الأوربية فى جانب ، وتدهور المسلمين وتبلبل المجتمع الاسلامى واضطرابه أو وقوعه تحت حكم الأجانب فى بلادهم فى جانب آخر ، أثار ذلك فيهم النخوة الاسلامية ، ونبض فيهم العرق القومى

الاسلامى ، ولجأوا الى دراسة الاسلام من جديد ، والى تحدى هذا الوضع المزرى ، وبالتالى الى تقديم فلسفة اسلامية ونظام اسلامى للحياة مقابل تلك الفلسفات والنظم ، وقد غشيت هذه الظلال السلبية كتاباتهم وتعبيراتهم وأساليب تفكيرهم ، يراها كل من أتيحت له فرصة دراسة الكتاب والسنة دراسة مباشرة مجردة عن التأثرات الخارجية والثقافات الأجنبية ، ويدرك مدى تأثير هذه الفلسفات والنظم الحديثة وسيطرتها القوية على هذه الكتابات ، والحركات والمنظمات ، والمدارس الفكرية الحديثة .

أما الأولون فقد تجلى حديثهم وكتاباتهم هذا الفرق بين «الغاية» و « الوسيلة » وتجلى لمن جالسهم أو عرفهم عن كثب أو تعمق فى قراءة ما صدر عن اقلامهم ، أن الرائد الذى يحدوهم والدافع الذى يدفعهم هو الايمان والاحتساب ، وأن المقياس فى جميع المحاولات والجهاد فى سبيل الحصول على القوة والسلطة ، واقامة الخلافة والامارة ، انما هو ابتغاء رضا الله ، والرغبة فى الائتساء بأسوة النبوة ، والامتثال للأمر النبوى ، واعلاء كلمة الله ، وتطبيق أركان الاسلام ، وأحياء العلوم الدينية ، واقامة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ليس غير .

وقد عــرف حكيم الاســـلام أحمـــد بن عبد الرحيم ولى الله الدهلوى « الخلافة » فى كتابه الفريد « ازالة الخفاء عن خـــلافة الخلفاء » بالكلمات الآتية :

« هى الرئاسة العامة فى التصدى لاقامة الدين ، باحياء العلوم الدينية ، واقامة أركان الاسلام ، والقيام بالجهـــاد وما يتعـــلق به — من ترتيب الجيوش ، والفرض للمقاتلة ، واعطائهم من الفيىء — والقيام بالقضاء ، واقامة الحـــدود ، ورفع المظـــالم ، والأمـــر بالمعروف والنهى عن المنكر ، نيابة عن النبى صـــلى الله عليـــــه وسلم»(١) .

ويقول من خلال تفسيره لهذه العبارة المذكورة أعلاه :

« فلو أردنا أن نعبر عن هاتى الشعب والشئون (التى تتضمنها الخلافة) وعن الجزئيات بالكليـــات ، وعن الكليات بـــكلى واحـــد يشمل كلها ويكون كجنس أعلى لهذه الأنواع والأجناس جميعها ، لقلنا : انها « اقامة الدين » فهى تتضمن جميع الكليات التى تدخل فى نطاقها جميع الجزئيات(٢) .

ويقول فى صراحة :

« ونصب الخليفة واجب بالكفـــاية على المســـلمين الى يوم

---

(١) ازالة الخفاء عن خلافة الخلفاء ، ص ٢ طبعة أكاديميـــة سهيل — لاهور (باكستان) .

(٢) نفس المصدر .

القيامة »(١) .

ثم يقول بعد تقديم الدلائل الشرعية على ذلك :

ان الله تعالى جعل القيام بالجهاد ، والقضاء ، واحياء العلوم الدينية ، واقامة أركان الاسلام ، وذود الكفار عن جوزة الاسلام ، فرضا بالكفاية ، وهذه الأمور كلها لا يمكن أن تتحقق بدون نصب « الامام » ومقدمة الواجب واجبة(٢) (يعنى أنه اذا كان هناك واجب لا يمكن أن يتحقق الا بعمل آخر ، فاذا يجب القيام بهذا العمـــل أيضـــا) .

وارى لزاما على أن أؤكد بهذه المناسبة أن كلمة «اقامة الدين» لا يجوز أن تجعل مترادفة لمجرد السعى وراء تأسيس « الحــكومة الالهية » انها أوسع واجمع معنى ومفهوما مما يستخدم فى كتابات كثير من الكتاب الاســلاميين المعــاصرين ، فــ « اقامة الدين » تجمع بين جميع تلك الشعب التى أبانها حكيم الاســلام ولى الله فى كتابه ، ووردت هذه الكلمة فى موضع واحد من القرآن الكريم ، وذلك فى الآية ١٣ من سورة الشورى :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينـــا

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢
(٢) المصدر السابق

اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب »(١) .

وسياق الآية تدل دلالة مؤكدة على ان المراد به هو الدين بأجزائه وجميع تعاليمه ـ بما فيها العقائد والعبادات والمعاملات ـ وليس المراد هو مجرد الخلافة والحكومة ، والتمكن من السلطة والحاكمية ، يقول العلامة الآلوسى فى تفسيره الشهير « روح المعانى » عند تفسير قوله تعالى : « أن أقيموا الدين » :

« أى دين الاسلام الذى هو توحيد الله ، وطاعته ، والايمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء ، وسائر ما يكون العبد به مؤمنا ، والمراد باقامته تعديل أركانه ، وحفظه من أن يقع فيه زيغ ، والمواظبة عليه »(٢) .

وجاء بعد حكيم الاسلام الشيخ ولى الله الدهلوى ، حفيده النابغة العلامة محمد اسماعيل بن عبد الغنى بن ولى الله ، فوضع فى هذا الموضوع كتابا مستقلا باسم « منصب الامامة »(٣) وهو كتاب فريد من بعض النواحى فى المكتبة الاسلامية العالمية ،

---

(١) سورة الشورى : ١٣
(٢) « روح المعانى» ج ٧ ، ص ٥١٣ .
(٣) الكتاب بالفارسية .

وينقطع نظيره فى قوة استدلاله ، وعرضه ، واشاراته الدقيقة ولفتاته البارعة .

وقد عنى عناية فائقة بهذا الركن الاسلامى الأهم الامام السيد أحمد بن عرفات الشهيد فىأوائل القرن الثالث عشر الهجرى، وقام بمحاولة الحصول على هذه السلطة ، وتهيئة الجو لذلك ، واتخاذ الوسائل والأسباب له ، محاولة منسقة منظمة على أوسع نطاق ، لا يقوم بها الا المؤمن الألمعى ، والقائد العصامى ، والامام الدينى الذى هيأه الله لهذا العمل العظيم ، ودعا الى ذلك دعوة قوية ، بحماس وعزيمة ، واخلاص وهمة ، لا نجد نظيره فى الماضى القريب ولا فيما بعده فى شبه القارة الهندية على أقل تقدير ، وقد صدق مترجمه الشهير الأستاذ غلام رسول مهر حينما قال فى كتابه « سيد أحمد شهيد »(١) :

« هذه صفحة من صفحات تاريخ ذلك العهد ، الذى يوصف بعهد انحطاط المسلمين فى تاريخ شبه القارة الهندية ــ الهند وباكستان ــ ولكن لا أخال أن هناك رجلا ينشد الحق فى مظانه ، ويدرك الصدق على حقيقته ، يتردد فى الاعتراف بأن عهدا من عهود

---

(١) كتاب موسع فى ترجمة الامام أحمد الشهيد فى أربعة مجلدات ، مجموع صفحاتها ١٩٢١ (بالأردية)

المسلمين الزاهرة المتقدمة(١) لم يكن أزهر واليق بالافتخار — مبدئيا — من هذا العهد ، ولا يجوز الحكم على محاولة بالنتائج والمكاسب ، وانما المعول فى ذلك على عزم الجهاد وهمة العمل والثبات فى طريق الحق . وهل يمكن احدا أن يقدم من تاريخ عهودنا الراقية نماذج لهذه العزيمة والهمة والاستقامة التى لم يقصد صاحبها بها الا الدين والدين وحده»(٢) .

والى القراء الكرام مقتطفات من رسائله التى أرسلها الى أمراء المسلمين وملوكهم ، وكبار العلماء والمشايخ فى شبه القارة الهندية ، التى تدل على غايته المنشودة ، وعاطفته الحقيقية ، وعلى شعوره الرقيق الفياض ، الذى كان العامل الأساسى فى جده وجهاده ، ودعوته واجتهاده ، وعلى أن الغرض الذى كان يتوخاه من وراء محاولاته كلها ، انما هو الامتثال للأمر الالهى وتحقيق الأمر الربانى ، ونيل رضا الله ، وادالة الاسلام من الجاهلية ، والانتصار للاسلام ولأهله ، ورد اعتبار المسلمين ، واحياء ما مات من السنن ، وما اندرس من معالم الاسلام ، وما انطمس من شعائر الدين ، وانقاذ البلاد الاسلامية

---

(١) بعد القرون المشهود لها بالخير طبعا (المؤلف)

(٢) «سيد أحمد شهيد» طبعة شركة شيخ غلام على وأولاده، لاهور باكستان

من الأيدى المغتصبة الخرقاء ، وعلى أنه انما بعثه على هذه الخطوة الجريئة تجربته وايمـــانه بأن اقامة الدين منوطة بالســـلطة ، وأن تنفيذ الأحكام الشرعية رهين بالحكم والســـلطان ، واذا فانه رهن اشارة مولاه وطوع أمره ، ليس غير ، يقول فى رسالة لهالى رؤساء حدود الهند الشمالية وعلمائها :

« ان هذا الفقير — يعنى نفسه — ماض فى الطريق المرضى لدى مولاه بغاية من الطمأنينـــة والفرح والسرور ، وقـــد اعتمد على المواعيد الالهية(١) ، وجعـــل طاعة أمر الله موضـــع عنايته ونصب عينيـــه ، ونبـــذ ما ســـوى الله وراءه ظهـــريا ، وأطبـــق عينيه عما حوله »(٢) .

ويقول فى هذه الرسالة فى السطور الآتية :

« نحن عباد الله ، ومن أمة رسول الله ، وندعى أننا مسلمون ومن أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، لما رأينا أن القرآن ينطق بهذا المعنى (أى الجهاد) وآمنا بأن الرسول صادق ، اضـــطررنا أن نشد الأزر ونشمر عن ساق الجد لتحقيـــق أمر الله ، وأن نركب

---

(١) يعنى مواعيـــد النصرة الالهية والرضـــا الالهى والأجر والثواب على هذا العمل ، التى جاء ذكرها فى الكتاب والسنة .

(٢) « سيرة سيد أحمد شهيد » (بالأردية) بقلم كاتب هذه السطور ، الجزء الأول ص ٣٨٦ .

متن السفر والهجرة ، اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم(١).

ويفصح عن حوافزه وعواطفه الأصيلة فى رسالة الى الملك سليمان والى « شترال » ويصرح بأنه يبتغى علوا فى الأرض ولا فسادا ولا يشوبه غرض سياسى ، أو طموح شخصى وانما يرمى الى اجراء الأحكام الالهية واحياء السنن النبوية ، وأن يأخذ الناس بأحكام الشريعة والسنة السنية فى باب الحكم والقضاء ، يقول :

« هذا الفقير لا يهمه جمع المال والثروة ، ولا يطمع فى الحكم والسلطة ، واذا كان هناك أحد من الاخوان المؤمنين يقوم باسترجاع البلاد من أيدى الكفار والمشركين ، ويعمل على اجراء أحكام رب العالمين ، ونشر سنة سيد المرسلين ، والعمل بقوانين الشريعة فى الحكم والقضاء،فان هذا الفقير قد نال غرضه، وأصاب رميته»(٢) .

وحينما يضغط على هذه الناحية يأخذ منه الحماس الايمانى كل مأخذ ، ويجيش اخلاصه ، وتتدفق قريحته ، وتنطلق قيثارة عاطفته المؤمنة ، فيخط قلمه أمثال الكلمات الآتية الدافقة بالقوة ، يقول فى رسالة وجهها الى سلطان محمد خان وسيد محمد خان من

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٨٧ .
(٢) « سيرة سيد احمد شهيد » ص ٣٩١ .

ولاة « بشاور » ورؤسائها :

انى لا أقيم لتاج « فريدون » (١) وعرش « سكندر »

وزن شعيرة ، ولا أحسب حسابا للملك كسرى وقيصر ، نعم ! اتمنى أن تكون أحكام رب العالمين سارية المفعول فى معظم أفراد بنى آدم ، بل فى جميع أقطار العالم ، دون قوة تعارضها أو سلطة تمانعها ، سواء اتم ذلك بيدى أو بيد غيرى»(٢) .

ودراسة رسائله وأفكاره تدل دلالة واضحة على أن الباعث الأكبر الحقيقى على الجهاد والاجتهاد ، والنشاطات والممارسات ، التى كان يقوم بها ، هو شعوره الاسلامى بأن جزءا كبيرا من الشريعة الاسلامية والقوانين الالهية ، سيبقى معطلا ملغى ، بل يعود غير ممكن التطبيق والاجراء ، اذا لم تكن حكومة تقف من ورائه، وتتولى تطبيقه وتنفيذه ، ويصير المسلمون اذا مغلوبى الأمر ، مسلوبى الارادة ، يصبحون قطيعا من غنم أو لحما على وضم ، يشاهدون بأم أعينهم أن المساجد تهان وتهدم ، وشعائر الدين تمحى وتزال ، ولا يملكون من الأمر شيئا .

يقول فى رسالته الى الرؤساء المشار اليهم :

---

(١) ملك كبير من ملوك ايران القديمة .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

« ان الأحكام الدينية التى تتعلق بالحكومة تفلت من الأيدى تماما ، اذا لم تكن حكومة ، وفساد أمور المسلمين ، وما يقع من تعرض المسلمين لأنواع الذل والاضطهاد والنكبة على يد الكفار المتمردين، ومن انتهاك للشعائر المقدسة، وهدم للمساجدالاسلامية، كل ذلك ظاهر مشاهد ملموس »(1)

محاولات اقامة الدين مقرونة

دائما بمراعاة الحكمة وفقه الدين :

لكن هذا الركن — أعنى محاولة تمكين الاسلام وجعله قوة حاكمة ، لها الأمر والنهى — من أركان « اقامة الدين » ليس كقالب حديدى لا نعومة فيه ولا مرونة ، ولا يمكنه أن يتوسع فى اى حال من الأحوال ، فالذين تثق باخلاصهم ، ورسوخهم فى العلم ، وتفقهم فى الدين ، وتشهد لهم بذلك صفحات ناصعة فى التاريخ ، ودلائل وشواهد لامعة فى صفحات الكون ، وتعلم أنهم لم يكونوا من أهل « الرخصة » بل كانوا من رجال « العزيمة » فلا بد أن نعترف بأنهم لم يتخذوا من وسائل هذا العمل العظيم ومناهج تحقيقه ، الا ما كانوا يرونه منسجما مع الأوضاع التى كانوا يعيشونها ، ولم يألوا جهدا فيما كانوا يستطيعونه ، لأن المقصود هو النتيجة لا الوسيلة ، والبناء لا الهدم ، والايجاب

---

(1) نفس المصدر ، ص ٣٩١ .

لا السلب ، وكيف يسوغ لعاقل أن يقبول : ان هؤلاء المصلحين
المجاهدين كان واجبا عليهم على كل حال أن يضعوا كل جهودهم فى
هدم الأبنية ـ التى فسدت بعض اجزائها ، أو أسيء استخدامها ـ
ويستهلكوا فى ذلك امكانياتهم وفرصة عمرهم ، ولا يدعوها حتى
يحولوها أنقاضا ، سواءا وجدوا فرصة اعادة بنائها و لم يجدوها ،
فان وقفوا من الحكومات الاسلامية المحكمة التى كان حكامها
والمسؤولون عنها يتلفظون بكلمة الاسلام ويعملون بكثير من فرائضه
وشعائره ، ويملكون وسائل وامكانيات لا يملكها غيرهم ، موقف
الاصلاح والنصح ، والتفهيم والايضاح ، دون المعارضة الكلية ،
واستخدموا مبدأ « الامالة » دون « الازالة » لا يجوز لنا أن نرميهم
بالاهمال الكلى فى القيام بهذه الشعبة من شعب « اقامة الدين »
وباقتراف « التعاون على الاثم والعدوان » .

وكذلك لا يجوز لنا ان نتهمهم بالتقصير فى آداء هذا الواجب ،
لو ركزوا عنايتهم ، وما أوتوا من المواهب العلمية والخطابية
والكتابية ، وما يتمتعون به من المؤهلات الروحانية والقوة الايمانية،
على تحويل اتجاه المجتمع من الجاهلية الى الاسلام ، ومن
تلغى عبادة النفس والمادة الى عبادة الله وحده ، ومن حران
العصيان والاباء والطغيان ، الى الطاعة والانقياد ، حيث ان
المجتمع الاسلامى الفاضل الأصيل هو التربة المعبدة الصلبة التى

فتتحمل أثقل عبء ، وأضخم بناء ، وتقبل القيادة الصالحة ،
وبجانب ذلك ظلوا على اتصال دائم بمركز القيادة والادارة ، وبلاط
الحكومة ، وقدموا الى رجال الحكومة قوانين شرعية مدونة ، لكي
يأخذوا بها في النظام المالي والقضائى والادارى ، وسخروا الحكام
المعاصرين بقوة أخلاقهم وايمانهم وروحانيتهم واخلاصهم ونصحهم ،
فمنعوهم أحيانا كثيرة عن الخطوات التى تلحق الضرر بالاسلام
والمسلمين ، وأخضعوهم بهذه القوة الغلابة لاجراء القوانين
الشرعية والحدود الالهية ، ووقفوا بهم فى وجه القوى المحاربة
للاسلام ، فكانوا سببا مباشرا فى توسيع حدود الدولة الاسلامية ،
والجهاد فى سبيل الله ، ووفروا للحكومة رجالا أمناء أوفياء أكفاء
ربوهم فى أحضانهم أعواما طوالا ، وربما كانوا واسطة فى تحول
زمام الحكومة والقيادة من الملحدين الى المتدينين من المحاربين
للاسلام الى المحافظين على الاسلام ، من الماحين للدين
الى الحامين للدين ، فلا بد أن نعترف لهم بالفضل ، ونعتبرهم
حاملى لواء السعى فى سبيل اقامة الدين ، وجنود الاصلاح
والاحياء والتجديد الأوفياء ، ولا يحق لنا أن نسقطهم من
الحساب ، ونخرجهم من القائمة ، و نرميهم بالتقصير فى المسئولية ،
بمجرد أنهم لم ينجحوا فى تأسيس حكومة الهية مثالية .

والأستاذ المودودى نفسه يضغط بكل قوة على الأخذ بهذه

الحكمة ومراعاة الظروف والأوضـــاع ، واللبـاقة واللبـــاقة حين تتطلبها الظروف وتوجبها الملابسات ، ويعبـــر عنه بـــ « الحكمـــة العملية » يقول :

« الحكمة العملية » هى التى تفرض على الداعى أن ينظر ماهى الأسباب التى يجب أن تتخذ وسيلة الى التقدم الى الامام فى الطريق المؤدى الى الغاية ، وما هى الفرص التى يجب انتهازها ، وما هى العوائق التى يجب ان تتركز العنـــاية على ازالتهـــا توا ، وما هى المبادىء التى يجب أن تكون ذات مرونة ، وما هى المبادىء التى يجب أن يبحث فيها عن جوانب المرونة التى تتطلبها المصالح الهامة »(١) .

ويقول فى موضع آخر :

« والمراد منها (الحكمـــة العملية) بالايجاز : أنه يجب أن نراعى فى تنفيذ الأحكام الشرعية واقامة الدين ، تلك الأوضـــاع التى تواجهنا لدى العمل ، وأن نغير فيما يتصل بالفتاوى والأسلوب العملى تغييرا تتحقق به المقاصد الشرعية فى معنى الكلمة ، ولا تضيع هدرا من أجل تطبيق الأحكام والمبادىء على الأوضـــاع التى لا تقبلها »(٢) .

---

(١) « تفهيمات » (بالأردية) الجزء الثالث ، ص ٩١ — ٩٢ تحت عنوان « مراعاة المصلحة والضرورة فى الاسلام . وأصولها وقواعدها » توزيع المكتبة المركزية للجماعة الاسلامية دهلى — الهند

(٢) المصدر السابق ص ١٨٣ .

ويقـــــول :

« كل من يريد أن يعمـــل على اقامة الدين فعـــلا ، ســـواء أكان فردا ، او جماعة او دولة ، فطبعا يحتاج ــ فى تحركاته ــ الى أن يراعى الأوضـاع ، ويستخدم « التعقل العملى » ولا يمتنع فى هذه السبيل ــ اذا الحت عليه الضرورة ــ من أن يغير فى التدابـــير المسموح بها فحسب ، بل ربمـــا يلجأ الى أن يستخدم أمثال تـــلك الرخص التى منحتها الشريعة والتى لم يتحرج الأنبياء والصـــحابة الكرام أيضا من أن يستفيدوا منها »(١) .

فاذا ما نزلنا عند هذا المبدأ ، ووثقنا باخلاص هؤلاء الرجال وتفقههم فى الدين ، وكونهم من أهل العزيمة ، ذلك الذى تشهد به حياتهم التى عاشـــوها ، فلا معـــدى لنا عن أن نســـلم فى ضوء الشهادات التاريخية ، بأن الذين قاموا باستنباط المسائل وتوجيـــه الأمة من الأئمة المجتهدين ، والذين قاموا بتدوين الأحاديث وتحقيقها وتنقيحها من المحدثين العظام ، والذين منحوا هـــذه الأمة ثـــروة واسعة من القانون المنظم للخراج والجزية من رجـــال التشريـــع والتقنين ، والذين تفادوا بالمجتمع الاســـلامى من المـــادية الرعناء والانجراف مـــع الســـيل الجـــارف من الغفلة ، ووفـــرة الثروة والمال ، والرخاء الاقتصادى ، والرفاهية الآتيـــة من توســـــع

---

(١) المصدر السابق ١٨٩ .

الفتوحات ، والذين عصموه من عبادة النفس والهوى والسلطة والحكم ، والخضوع للقوة والتهالك على المال والثروة ، والتهافت على المنصب والجاه ، وبيع الضمير والعقيدة ، والتضحية بالمبادىء والأصول فى سبيله ، والذين قاموا « بصنع » الرجال وتكوين السيرة والأخلاق فى مجتمع منهار مشرف على الزوال ، والذين أرصدوا رجالهم التى صنعوها فى جبهات خطرة حاسمة من رجال الاصلاح والتربية ، والذين حولوا — فى صمت وهدوء — أمما محاربة للاسلام أذاقت المسلمين هزيمة نكراء ، وأسرا ملوكية طاغية وأصحاب سلطان ونفوذ متجبرين ، لا مسلمين مستسلمين فحسب ، بل محافظين على الاسلام ، وخدمة بارين له من أهل القلوب واليقين ، ورجال الحب والحنان ، والذين نفذوا فى قلوب الحكام المعاصرين بفضل سمو أخلاقهم وروحانيتهم ، واخلاصهم وزهدهم وعفافهم ، فأخضعوهم للعدل والانصاف ، ولتطبيق قوانين الاسلام وأحكام الشريعة ، وللقضاء على البدع والمنكرات من العلماء الربانيين ، الذين آثروا هذا العمل على العزلة والخلوة والانقطاع الى الانشغال بذات الله وحده ، وربما خاطروا فى ذلك بأنفسهم ، والذين هيأوا الأذهان والقلوب من أجل احداث الانقلاب الصالح وتأسيس الحكومة الاسلامية على أسس صحيحة ، وربوا لذلك رجالا تربية فكرية وعملية ،

ووضعوا له أسسا علمية ، من أكابر رجال العلم والفكر ، هؤلاء كلهم — مهما اختلفوا فى المسالك والمذاهب ومهما غلب عليهم لقب خاص — كانوا من ذلك الركب العظيم ، السائر على هذا الدرب الكريم ، درب اقامة الدين ، فقد قاموا بهذه المسئولية فى عهدهم حسبما سمحت به الظروف الراهنة ، واقتضته المتطلبات المعاصرة ، والأوضاع التى كانت تلابسهم ، ولكن أحوال بعضهم فى أضواء تاريخية ساطعة ، وأحوال بعضهم وجهودهم وجهادهم ، وأفكارهم وآرائهم ، لم تحوها كتب التاريخ التقليدية أو السياسية الادارية ، بل انها توجد فى مجاميع رسائلهم ودواوين حوارهم وأحاديثهم ، والكتب التى سجلت فيها كلماتهم ومواعظهم ، التى ربما لم تطبع بعد ، ان دراسة هذه المادة الغنية تدل على أنه لم يخل عصر من عصور التاريخ الاسلامى ممن قاموا بهذه المحاولة حسب الوسائل والامكانيات المتاحة ، وظل العلماء الأعلام يؤدون واجبهم ، ويرضون ربهم ، ويطمئنون ضمائرهم ، وقد وفق عدد منهم أن يبلغوا بهذا العمل الى شاطىء النجاح ونقطة الغاية ، التى لا تزال بعيدة عنها بمسافات شاسعة ، تلك الجماعات والمؤسسات التى تعمل لهذ الغرض وتحمل لافتة العمل الاسلامى او لا تحملها فى شبه القارة الهندية ، أو فى أرجاء الدول الاسلامية ، ولا يدرى أحد هل يكتب لها الوصول الى هذه النقطة أم لا ؟

أما السيد احمد الشهيد واصحابه الصادقون الأوفياء فقد بذلوا في هذا الطريق كل ما كانوا يملكونه من جهد جهيد ، ومن قدرة وقوة ، ولم يدخروا وسعا في تجربة اي وسيلة كانت مفيدة في هذه الغاية ، وقد صنعوا — فينهاية المطاف — آخر ما كانوا يستطيعونه ، فبذلوا مهجهم وأرواحهم في سبيل الله .

وكان الشاعر الاسلامي الدكتور محمد اقبال في أبياته الفارسية الغاية ، وقد صنعوا — في نهاية المطاف — آخر ما كانوا والوفاء :

« انهم ربما يعتمدون على الحجج والدلائل والبيان المعجز الأخاذ ، وربما يستخدمون السيوف والرماح في سبيل الحق ، واحيانا يرتدون الدرع تحت « الخرقة » ، وبالجملة ان العشاق خاضعون للاشارة ، فيصنعون ما يتفتح عليهم ، وينكشف لهم ، فاذا ما بلي هذا العالم وفقد غضاضته ، يبدونه كي يبرزوا من هذا الماء والطين عالما آخر يقوم على الايمان واليقين ، انهم قوم كل أمرهم عجب في عجب ، فقد يشترون الخسارة بالربح ، ويبيعون كل متاعهم بنظرة واحدة » (١) .

---

(١) « زبورعجم » .

كلمـــة لا بـد منهـــا

هذه السطور التي تقدمت بها الى القراء الكرام فى الصفحات الماضية ، والتى هى كـ « دراسات مبدئية » فيما يتصل بالعرض الجديد للحقائق والمبادىء الاسلامية ، ربما يتضايق بها أولئك الذين لا يفرقون بين « الخـلاف المبدئى » و « الخصـومة الشخصية » ويرون فى أدنى خلاف لوجهة نظر داعيـة أو عامل فى مجـال من المجالات الاسـلامية ، أو قائـد لحركة أو دعوة (تفيـد فائدة ما سياسية أو اجتماعية أو دينية) اضرارا بمصالح الاسلام ، وتشتيتا لشمل المسلمين ، وانى لا أنكر انه ربما استخدم الخلاف فى الرأى والمؤاخذة ، وأساليب الانكار والرد ، لتحقيق أغراض سـياسية أو حزبية ، ولكن الحقيقة أن هذا الخـلاف فى الرأى والنظـر ، والافصاح عنه لم يكن طريق السلف والخلف فحسب ، بل كان فى الوقت ذاته سببا كبيرا فى حفظ الـدين من التحريف الجـزئى ، وعصمة الأمة من الانحراف الكلى .

أما الأئمة المجتهدون فهم فوق أن أضرب بهم مثلا فى أمثال هذه المناسبات ، لأنهم كانوا مجردين من كل شائبة من الانانية والاعجاب بالنفس ، والحقد والحسد ، وفتنة « المعاصرة » بل الذين يعتبرون دونهم فى الزمان والمكانة ، والعلم والقبول والشهرة ، انهم كذلك لم يحتملوا هذا الخلاف فى الرأى ووجهة النظر فحسب ، بل تلقوه بالترحاب والسرور وطلاقة الوجه ، وشكروا لناقديهم ومخالفيهم ، على مؤاخذتهم ، وقد قبله أتباعهم وأنصارهم أيضا بغاية من سماحة النفس وانشراح الصدر، وتناولوه بالامعان والدراسة فى جد واخلاص ، ولم يرموهم بالعداء الشخصى أو نيل الشهرة والجاه بهذا الطعن فى شهير أو كبير ، أو الاضرار بمصالح الاسلام ، وهناك أمثلة رائعة من نقد العلماء للعلماء ، والعظماء للعظماء، يتشرف به المسلمون على مدار التاريخ، ويتجمل به تاريخ الفكر الاسلامى عبر القرون والأجيال ، ويبرهن به المؤرخ المنصف على شجاعة العلماء الأدبية ، وأنهم ما زالوا يؤدون الشهادة لله ، لا تأخذهم فى ذلك لومة لائم ، ويؤثرون مصلحة الدين على كل مصلحة .

ان الاخلاص الصادق ، وعاطفة نشدان الحق ، وحب صيانة الدين عن كل شائبة من التحريف ، واعلاء كلمة الله فى الأرض ، والايمان بأن كلا يؤخذ من قوله ويرد ، الا النبى المعصوم صلى الله

عليه وسلم ، كل ذلك سيجعل الانسان لا يتضايق بهذه الملاحظات والتنقيحات ، بل سيستقبلها بصدر رحب وقلب منشرح ، لما يراها تعينه على فهم الاسلام ، وتفهيمه وصيانته ، مما سيدل على أن الغرض هو اتباع الحق ورضا الله ، لا تضخيم الشخصية أو تنميق الكلام ، أو تحبير الحديث .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع — الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب : ١٩٨٠/٣٢٠٩

الترقيم الدولى ٩٧٧ ـــ

مطبعـــة المنصـــورة ـــ ٣٠ شـارع العطار ـــ شبرا مصر ـــ القاهرة